التصوير البياني
ودوره في الكشف عن الإعجاز القرآني
(دراســـة تحليلية)

دكتــور

عصام عبد الفتاح عبده محمد

مدرس البلاغة والنقد

في كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بدمنهور

" رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ "

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين سيدنا ونبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – وعلى آله وصحبه ، ومن سار على نهجه إلى يوم الدين ، وبعد :

فعندما عينت مدرساً في قسم البلاغة والنقد ، وأسند إلي – في بداية أمري – تدريس علم البيان ، كنت حريصاً – دائماً – على الاستشهاد – في كل المواضع التي أقوم بشرحها – بآيات من القرآن الكريم ؛ لأنه هو الهدف الأسمى ، والغاية القصوى من دراسة البلاغة ؛ فهي الكاشف عن أسرار إعجازه ، والمفصح عن روعة ألفاظه ، والناطق بسحر بيانه . وعند ذلك أحسست بأنني أقرأ القرآن الكريم لأول مرة ؛ لما رأيت من نظمه العجيب ، وعطائه المديد ، وتصويره الفريد . وهذا ما دفعني إلى أن أجمع بعض هذه الشواهد البيانية في بحث واحد ، ثم أدلي فيها بدلوي ، وأجول فيها بفكري ، مستنيراً بما سطره العلماء من قبلي . راجياً من الله – تعالى – أن يهديني إلى بعضٍ من أسرارها ، وأن يغدق عليَّ بفيضٍ من عطائها ؛ فأقرؤها قراءة جديدة ومفيدة . وهدفي من وراء ذلك هو الربط بين التصوير البياني والإعجاز القرآني . وكيف أن الأول ساهم في الكشف عن الثاني .

هذا وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التحليلي البلاغي ، فقمت بتحليل الصورة البيانية التي اشتمل عليها النص القرآني ، ثم بينت كيف كانت هذه الصورة كاشفة عن إعجاز القرآن الكريم ، ثم أشرت إلى الوسائل البلاغية الأخرى التي تآزرت مع الصورة البيانية لتأدية هذا الغرض . وسرت فيه حسب بعض الأغراض التي تكشَّفت لي ، والتي

رأيت التصوير البياني هــو العنصر الأبرز فيهــا ، فقســمته خمســة مباحث ، وجعلت كل مبحث بعنوان غرض من هذه الأغراض ، وبيان ذلك كالتالي :

المبحث الأول : الدلالــة علــى عظمــة القــدرة .

المبحث الثاني : الدلالة على بوار أعمال الكافرين .

المبحث الثالث : الدلالة على هول الموقف يوم القيامة .

المبحث الرابع : بيان أثــر الكلمــة نفعــاً وضــراً .

المبحث الخامس : وصف مواقــف الشــدة .

ثم جاءت الخاتمة لتكشف عن أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة من نتائج .

ثم ختمت بفهرس للآيات القرآنية، ثم فهرس للمصادر والمراجع ، وفهرس للموضوعات .

وفي النهاية فإني أسأل الله – العلي القدير– أن يلهمني التوفيق والسداد ، وأن يجنبني التقصير والزلل ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

عصام عبد الفتاح عبده محمد

مدرس البلاغة والنقد في جامعة الأزهر الشريف

المبحث الأول : الدلالة على عظمة القدرة

١- قال– تعالى – : " **وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ** " [١] :

جاءت هذه الآية الكريمة في معرض تعداد النعم التي أنعم الله بها على الإنسان والتي تكفل بذكرها سورة (الرحمن) . وفيها تتجلى آيات القدرة والعظمة الإلهية ، كما تتجلى آيات الإعجاز القرآني : وبداية لك أن تتخيل – **أولاً** – هذه السفن ، وعظمة صنعها ، فالسفينة الواحدة تجد فيها كل مقومات الحياة في البحر : ففيها المسكن ، وفيها المطعم ، وفيها المسجد ، وفيها البضائع ، وفيها ما فيها ، ولا مبالغة إذا قلنا : إن السفينة هي قرية تمشي على الماء ؛ ومن هنا تتضح آيات القدرة في إمساك هذه الكتلة الضخمة على صفحة الماء الرقيق ، في الوقت الذي لو رميت فيه مخيطاً في البحر لسقط في قاعه ، فمن الذي خلقها ؟ ومن الذي أمسكها بقدرته ؟ إنه الله – تعالى – خالق كل المخلوقات .

وقد أُفرغت هذه المعاني الجليلة في صورة بيانية رائقة ؛ حيث شبه السفن في ارتفاعها وضخامتها وعظمتها بالجبال . وإذا أمعنت النظر في صورة المشبه ، والمشبه به ازددت يقيناً بعظمة الخلق ، والتي – بدورها تنقلك إلى عظمة الخالق – جل وعلا – فلماذا شُبهت السفن بالجبال ؟ ويرجع ذلك إلى أن الجبال هي أعظم شيء يراه الإنسان أمام عينه ؛ ثم إذا أدرك أن هذه الجبال العظيمة هي التي تمشي على صفحة الماء الرقيق ؛ أيقن تمام اليقين أن هذا من صنع إله واحد وقادر .

---

(١) الرحمن / ٢٤ .

وللعلماء في سر اختيار الجبال لتكون مشبهاً بـــه أســـرار لطيفـــة : قال أبو هلال العسكـــري : " والفائدة : البيان عـــن القدرة فـــى تسخير الأجسام العظام فى أعظم ما يكون من الماء [١] . وقال ابن الأثير : " وهذا تشبيه كبير بما هـــو أكبر منه ؛ لأن خلق السفن البحرية كبيـــر، وخلـــق الجبال أكبـــر منه "[٢] . ويقول ابن أبي الإصبع : " وهذا بيان قد أخرج ما لا قوة له فـــي الصفة إلى مـــا له قوة في الصفة ، وقد اجتمعا فـــي العظم ، إلا أن الجبال أعظم ؛ وفي ذلك العبرة من جهة القدرة فيما سخر الله من الفلك الجارية على الماء مع عظمها ولطفه ، وما في ذلك من الانتفاع بحملها الأثقال ، وقطعها الأقطار البعيدة في المسافة القريبة [٣] . ومن هنا كانت المبالغة في التشبيه – كما يقول العلوي في طرازه – لأن المبالغة في التشبيه لا يمكن حصولها إلا إذا كان المشبه به أدخل فى المعنى الجامع بينهما [٤] .

وإذا تأملنا مفردات هـــذه الصورة البيانية نجدها تبدأ بأسلوب القصـــر بطريق التقديم (وله الجوار) أي له لا لغيره ، فاللام للملكية ، و خص – تعالى – الجواري بأنها له ، وهو – تعالى – له

(١) الصناعتين لأبي هلال العسكري تحقيق: علي محمد البجاوي ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت – عام ١٤١٩ هـــ / ص ٢٤٢ .

(٢) المثل السائر لابن الأثير – تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد – الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت – عام النشر: ١٤٢٠ هـــ – ص ٣٨١ .

(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع العدواني ، تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف ، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي / ص ١٦٠ .

(٤) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي ، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت – الطبعة : الأولى : ١٤٢٣ هـــ / ج١ / ص ١٥٦ .

ملك السماوات والأرض وما فيهن ؛ لأنهم لما كانوا هم منشئيها أسندها – تعالى – إليه ، إذ كان تمام منفعتها إنما هو منه – تعالى – فهو في الحقيقة مالكها ، ومصرفها [١] .

وجاء المشبه (الجواري) ، والمشبه به (الأعلام) بطريق الجمع ، مع إفراد (البحر) للدلالة على عظمة البحر ، ولو قال في البحار لكانت كل جارية في بحر ،

فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال ، وأما إذا كان البحر واحداً ، وفيه الجواري التي هي كالجبال يكون ذلك بحراً عظيماً ، وساحله بعيداً ، فيكون الإنجاء بقدرة كاملة [٢] .

وإلى جانب القدرة الإلهية تكون النعمة الربانية ، فالله – تعالى – هو الذي هدى الإنسان إلى صناعة هذه السفن ، بدليل قوله – تعالى – : " **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** " [٣] . فجمعت الآية الكريمة بين منتين : منة تسخير السفن للسير في البحر ، ومنة إلهام الناس لإنشائها [٤] . كما جمعت بين جلال الخلق ، وجمال التعبير ، وهذا هو عين الإعجاز القرآني .

---

(١) انظر : البحر المحيط لأبي حيان – تحقيق: صدقي محمد جميل – طبعة : ١٤٢٠ هـ الناشر: دار الفكر– بيروت / ج١٠ ص٦١ .

(٢) انظر: مفاتيح الغيب للفخر الرازي – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ – ج٢٩ ص٣٥٤ .

(٣) هود / ٣٧.

(٤) انظر : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – نشر الدار التونسية – تونس– ١٩٨٤هـ – ج٢٧ ص ٢٥١ .

٢ – قال – تعالى – : « **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً** » (١) .

والآية الكريمة جاءت لتحقق غرضاً من الأغراض العامة لسورة الكهف ؛ وهو الكشف عن السبب الحقيقي لبعد المشركين والطغاة عن التدبر في أدلة التوحيد وعلامات البعث بعد الموت التي تحيطهم من كل جانب ؛ وهو اغترارهم بالحياة الدنيا ، وإقبالهم عليها ، وظنهم أنه لا حياة بعد الموت حتى يستعدوا لها . وقد لخص النظم القرآني هذا الاغترار في القصة التي تناولتها الآيات السابقة عن هذه الآية (٢) ، ثم أكد لهم – هنا – بالدليل الواضح أنه لا ينبغي الارتكان إليها ؛ والاغترار بها لأنها فانية .

وجاء السياق القرآني في صورة مثل يلخص لنا أمر الحياة الدنيا ، ويكشف عن حقيقتها الخادعة ، ويجمع كل مراحلها في لوحة فنية رائعة ، وعبارات لفظية دقيقة وموجزة . فالحياة في إقبالها على الإنسان ، وانغماسه في ملذاتها ، وشهواتها ، ثم سرعة فنائها وتوليها عنه إنما هي كالماء الذي ينزل من السماء فيختلط به نبات الأرض ، فيصبح أخضراً وارفاً ، ثم سرعان ما يصل إلى مرحلة النهاية ، مرحلة الجفاف والتطاير في الهواء ، وهي النهاية القريبة والحتمية . وتلك هي حياة كل إنسان على وجه الأرض .

---

(١) الكهف / ٤٥ .

(٢) وهي من قوله – تعالى – : " **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا** ..... إلى قوله – تعالى : " **هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا** " . الكهف من الآية ٣٢ إلى الآية ٤٤ .

ويتسم هذا المثل ، أوهذا المشهد بالإيجاز الشديد ، قال العلوي في الطراز " ومن الاختصار العجيب والإيجاز البليغ فى التشبيه قوله تعالى : " **وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ .....** " : فانظر إلى ما اشتملت عليه هذه الآية من أنواع تشبيهات . أشياء بأشياء فى معان وأوصاف بحيث لو فُصِّلت لاحتاجت إلى شرح ، مع اختصاصها بجزالة اللفظ ، وبراعة النظم ، وبلاغة المعانى ، وحسن السياق " [١] .

وتأمل هذا التعبير " **الْحَياةِ الدُّنْيا** " ، ودلالته القوية على أن الدنيا مهما طالت مدة بقاء الإنسان فيها فهي قريبة، وقصيرة ، وناقصة، فلا يركن إليها الإنسان . كما يدل القيد " **الدُّنْيا** " على أن المقصود الحياة الدنيوية لا الآخروية ، وهذا نوع من الاحتراز .

وربط النظم القرآني ربطاً عجيباً بين مـــراحل حياة الإنسان ، وحياة النبات ، فكلاهمـــا مـــن الماء ، وكلاهما يمر بنفس المراحل ، وكلاهما يفنى عند الاكتمال ، فمهما عاش الإنسان فعمره قصير ، وحياته لمحة ، واكتمال نضارة النبات مؤذن ببداية جفافه ، وسرعة فنائه . والكلمات موجزة ومعبرة ، واختصارها يناسب سرعة الحياة ، والفاء بسرعتها المعتادة تؤكد تلك المعاني ، وتكرارها يطوي الأحداث ، ويعجل بالنهاية المحتومة .

وفي قوله – تعالى – " **فاختلط به نبات الأرض** " عكس وقلب ، فالأصل أن يقال : (فاختلط بنبات الأرض) ؛ " لأن المعروف في عرف اللغة والاستعمال دخول الباء على الكثير غير الطارئ وإن صدق بحسب الوضع على كل من المتداخلين أنه مختلط ومختلط بـــه ، إلا أنه

(١) الطراز للعلوي ١٤٣/١ .

اختير ما في النظم الكريم للمبالغة في كثرة الماء ، حتى كأنه الأصل الكثير " [١] .

وعبر بقوله – تعالى – : " **هَشِيماً** " للمبالغة في جفاف النبات وتفتته ، والدلالة على قلة قيمته ؛ لذا أصبح هباء " **تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** " ، فلا يبقى شيء على حاله . وبذلك ينتهي شريط الحياة في هذه الجمل القصيرة ، والمشاهد الثلاثة المتتابعة : " **كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ**" ، فـ" **اخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ**" ، فـ " **أَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** " . لقد اجتمعت لهذا التعبير كل عناصر الصدق والدقة والجمال : الصدق في عرض أطوار النبات ، فلم ينقص شيئًا منها لتحقيق الغرض الديني ، والدقة ؛ لأنه حقق غرض الصورة كاملاً ، والجمال لأن سرعتها الخاطفة مما ينشط له الخيال [٢] .

ومن هنا كانت النتيجة الحتمية : " **وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً** " ، وهي " جملة معترضة في آخر الكلام موقعها التذكير بقدرة الله – تعالى – على خلق الأشياء وأضدادها ، وجعل أوائلها مفضية إلى أواخرها ، وترتيبه أسباب الفناء على أسباب البقاء ، وذلك اقتدار عجيب ، وقد أفيد ذلك على أكمل وجه بالعموم الذي في قوله : " **عَلَى كُلِّ شَيْءٍ** " [٣] . وعبر – سبحانه – بقوله : " **مُقْتَدِراً** " – بمعنى " قادرا

---

(١) الجدول في إعراب القرآن الكريم لمحمود بن عبد الرحيم صافي – الناشر: دار الرشيد – دمشق – مؤسسة الإيمان – بيروت – الطبعة الرابعة : ١٤١٨ هـ – ج١٥ ص ١٩٨ . وراجع : إعراب القرآن وبيانه لمحي الدين درويش – الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية – الطبعة الرابعة – ١٤١٥هـ – ج٥ ص٦١٩ .

(٢) انظر : التصوير الفني في القرآن للشيخ سيد قطب الناشر: دار الشروق – الطبعة الشرعية السابعة عشرة /١٢٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٣٣٢/١٥ .

" – بزيادة المبنى المفضي إلى زيادة المعنى – للمبالغة في كمال قدرته (تعالى) .

٣- قال – تعالى – : « **وآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ** » (١) :

جاءت هذه الآية الكريمة كمؤثر من المؤثرات المنتزعة من المشاهد الكونية التي تساهم في بناء عقيدة التوحيد ، وترسيخ قضية البعث التي تبنتهما سورة (يس) .

والآية الكريمة ترسم لنا مشهداً عجيباً ، ومتجدداً من مشاهد القدرة الإلهيـــة ، تراه العيون كل يوم ، وهو انفصال الليل عن النهار ، والظلمة عن النور .

وقد أُفرغ هذا المشهد العجيب في قالب استعاري رائق ، وألفاظ دقيقة معبرة . والسلخ معناه كشط الجلد ، يقال : سلخت المرأة درعها إذا نزعته ، والمسلوخة اسم للشاة المسلوخة نفسها ، وانسلخ النهار من الليل خرج منه خروجاً لا يبقي معه شيء من ضوئه لأن النهار مكور على الليل فإذا انسلخ منه ضوؤه بقي الليل غاسقاً قد غشي الناس (٢) .

والسلخ – هنا – مستعار من كشط الجلد وسلخه عن الشاة ونحوها لإزالة ضوء النهار ليأتي الليل، بجامع ترتب شيء على شيء ،

---

(١) يس / ٣٧ .

(٢) راجع : العين للخليل بن أحمد الفراهيدي – تحقيق : د/ مهدي المخزومي ، د/ إبراهيم السامـــرائي – الناشر : دار ومكتبة الهلال – مادة سلخ . وتهذيب اللغة لمحمد الأزهري – تحقيق : محمد عوض مرعب – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى : ٢٠٠١ . مادة سلخ . ولسان العرب لابن منظور – الناشر : دار صادر – بيروت – الطبعة الثالثة ١٤١٤ هـــ مادة سلخ .

والحركة عجيبة وغريبة تخاطب الحس البشري كـل يوم ، فالليل يأتي بظلمته الدامسة ، والنهـار يختفي بإشـراقه المبهج ،
فيدخل الناس في صمت وظلام ، وتستكين الخلائق إلى حين ، ثم يأتي يوم جديد تتكرر فيه هذه المعجزة اليومية الشاهدة على قدرة الله – تعالى – .

" والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة – في هذا الموضع – تعبير فريد ؛ فهو يصور النهار متلبساً بالليل ، ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون . ولعلنا ندرك شيئا من سر هذا التعبير الفريـد حين نتصور الأمـر علـى حقيقته . فالأرض الكرويـة فـي دورتها حـول نفسها فـي مواجـهة الشمس تمـر كـل نقطة منها بالشمس فإذا هذه النقطة نهـار ، حتـى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس، انسلخ منها النهار ولفها الظلام– وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام . فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير" [1] .

ولا ينفك الإعجاز في التعبير عن الإعجاز في الخلق فجاء اختيار الفعل نسلخ في قمة الإعجاز ؛ " وذلك أنه لما كانت هوادي الصبح عند طلوعه ملتحمة بأعجاز الليل أجرى عليها اسم السلخ وكان ذلك أولى من أن يقال نخرج مثلاً ؛ لأن السلخ لا يتأتى إلَّا بجهد ومشقة لفرط التحامه باللحم والعظام " [2] .

(١) في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب – الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة – الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ – ٢٩٦٨/٥ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه / محي الدين درويش ٢٠١/٨ .

والتعبير بصيغة المضارع (نسلخ) يدل على تجدد هذه الظاهرة الكونية كل يوم ؛ الأمر الذي يُلزم الحس البشري أن يجدد اعترافه مع تكرارها بتلك القدرة العجيبة .

وتتأكد المعاني بتوالي الأدوات : فالطباق الواقع بين الليل والنهار يقوي تلك المعجزة ويؤكدها ؛ فبهذه الظاهرة العجيبة – وهي السلخ – يتحول النهار إلى ليل ، وتتحول حركة الخلائق إلى سكون . وبسرعة عجيبة – أدتها فاء التعقيب والسرعة – تكون المفاجأة – المعبر عنها بإذا الفجائية – فإذا بالظلام يلف الناس لفاً " **فإذاهم مظلمون** "، " أي ليس بيدهم بعد ذلك أمر ولابد لهم من الدخول فيه " (١) .

وجاءت عبارة " **فإذاهم مظلمون** " في مكانها الطبيعي ، فهي مناسبة لما قبلها ، فلما " سُمع – في صدر الآية – انسلاخ النهار من الليل علم أن الفاصلة تكون " **مظلمون** " ؛ لأن من انسلخ النهار عن ليله أظلم أي دخل في الظلمات ما دامت تلك الحال "(٢) ، وهذا ما يعرف – في البلاغة – بفن التوشيح (٣) .

---

(١) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٢٧٦/٢٦ .

(٢) إعراب القرآن وبيانه / محي الدين درويش ٢٠١/٨ .

(٣) وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبيء عن مقطعه ؛ وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه ، حتى لو سمعت شعراً ، أو عرفت رواية ؛ ثم سمعت صدر بيت منه وقفت على عجزه قبل بلوغ السماع إليه . ومن أمثلة ذلك قول الراعى : **وإن وزن الحصى فوزنت قومى ... وجدت حصى ضريبتهم رزينا** فإذا سمع الإنسان أول هذا البيت وقد تقدمت عنده قافية القصيدة استخرج لفظ قافيته ؛ لأنه عرف أن قوله « وزن الحصى » سيأتى بعده « رزين » لعلتين : إحداهما أن قافية القصيدة توحيه ، والأخرى أن نظام البيت يقتضيه ؛ لأن الذى يفاخر برجاحة الحصى ينبغى أن يصفه بالرزانة . راجع في ذلك : نقد الشعر لقدامة بن جعفر – الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية – الطبعة الأولى : ١٣٠٢هـ / ص٦٣ . و الصناعتين لأبي هلال العسكري /٣٨٢ وما بعدها . و سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي – الناشر: دار الكتب العلمية – الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ – ١٩٨٢م / ص١٦٠ . وغيرها .

المبحث الثاني

الدلالة على بوار أعمال الكافرين

١- قال – تعالى – : " **مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ** " (١) :

الآية الكريمة تناسب السياق العام لسورة إبراهيم ، والذي ركز على دعوة الرسل لأقوامهم ، ومقابلة أقوامهم لهم بالعناد والكفر ؛ فبينت لهم أن هذا الكفر محبط لأعمالهم مهما كانت .

ومن الأمور المسلم بها في الشريعة الإسلامية أنه لاتنفع مع الكفر طاعة ، ومن هنا فمهما قدم الكافرون من أعمال فلن تنفعهم بأي حال من الأحوال ، وهذا ما جاء تأكيده في القرآن الكريم في عدة مشاهد مصورة ، ومنها هذا المشهد الذي معنا ، والذي جاء بطريق التشبيه التمثيلي : والمشبه : أعمال الكافرين في عدم نفعها لهم ، والمشبه به : الرماد المتراكم الذي عصفت به ريح شديدة فلم تبق منه شيئاً . ووجه الشبه : هيئة شيء يأتي على شيء فيفنيه ويمحو أثره . فالكفر يمحو أثر العمل كما أن الريح لم تبق من الرماد شيئاً .

و" هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار. فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله .... مفككة كالهباء والرمـــاد ، لا قوام لها ولا نظام . فليس المعول عليه هو العمل

(١) إبراهيم / ١٨ .

، ولكن باعث العمل . فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة إلا بالباعث والقصد والغاية " [١] .

وعندما نعاين هذه الصورة عن قرب يطالعنا هذا الإعجاز القرآني العجيب ، بهذا المشهد الذي يدل على ضياع الأعمال ، وهو مشهد متدرج يساير الفكر إلى أن يصل به إلى الغاية المحتومة ، فعمل الكافر – أولاً – يشبه الرماد في عدم قيمته وجدواه ، وهذا يكفي لبطلان هذا العمل ، ولكن السياق القرآني يتدرج – مع العقل – لما هو أمعن في البطلان ، فقد يتصور البعض أن هذا الرماد – رغم عدم قيمته – قد يكون فيه بعض النفع ، فتأتي الخطوة الثانية لتبين أن هذا الرماد قد اشتدت به الريح ففرقته ، فلم يعد ذا جدوى . ولكن الأمـــر لم ينته عند هذا الحد ، فقد يظن البعض أن بعض ذرات الرمـــاد قـــد انفلتت من تلك الريح ، فيدل ذلك علـــى بقاء بعض الأثر لهذه الأعمال ، فتأتي لحظة الحسم ، فالرماد قد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، فهل يبقى منه شيء !! " وهكذا يلتقي المشهد المصور مع الحقيقة العميقة ، وهو يؤدي المعنى في أسلوب مشوق موح مؤثر " (٢) .

وإذا أمعنا النظر فـــي جزئيات هـــذه الصورة نجدها تبدأ بكلمة (**مثل**) للدلالة على أن الأمر عجيب ، ويـــأتـــي هـــذا العجب من إضافة اسم الرب إلى ضميرهم في قوله – تعالى – : " **بِرَبِّهِمْ** " ، فهو – تعالى – ربهم ومالك أمرهم ، ومع ذلك فهم يكفرون به !! ومن هنا كان العجب !! . ثم تأتي لحظة الإثارة ، فالعبارة تثير فـــي النفس

(١) في ظلال القرآن ٢٠٩٤/٤ .

(٢) الصفحة نفسها .

تساؤلاً مفاده : مـــا مثلهم هذا ؟ فُيستأنف الكلام للجواب عن هذا السؤال : فيأتي قوله – تعالـــى – **(أعمالهم كرماد)** . وفصـــل بين الجملتين لشبه كمـــال الاتصـــال بينهما، كمـــا هو الحال في الفصل بين السؤال والجواب .

وجمع الأعمال وأضافها إلى ضميرهم ثم صورها بالرماد لكي لا يتفلت عمل من الأعمال قد يتصور البعض أنه سينفعهم بأي حال من الأحوال .

وفي اختيار الرماد دقة في الوصف ؛ لكونه لا وزن له ولا قيمة ، ويطير مع أدنى هبة ريح ؛ لتفتته وهوانه . وهذا هو حال أعمالهم .

وللشيخ الطاهر بن عاشـــور لمحة لطيفة فـــي سر اختيار كلمة **(رماد)** ، يقول : " ومن لطائف هذا التمثيل أن اختير لـــه التشبيه بهيئة الرمـــاد المجتمع ؛ لأن الرمـــاد أثـــر لأفضـــل أعمال الذين كفـــروا وأشيعها بينهم ، وهـــو قِرَى الضيف ، حتى صارت كثرة الرمـــاد كناية – فـــي لسانهم – عن الكرم " [1] .

وعبر بـــ **(الريح)** دون الرياح لمناسبتها لموقف إزالة الرماد المناسب لمحو الأعمال ، أما الرياح فأكثر ما تكون في الخير . والمجاز العقلي – في إسناد العصف لليوم – يدل دلالة قطعية على أن اليوم تحول من طبيعته الهادئة إلى موجة عاصفة تمحو كل شيء بإذن ربها . وفي وصف اليوم بالعاصف دلالة على عدم بقاء شيء في طريقه ، فلم يعد هناك أثر ولا خبر .

(١) التحرير والتنوير ٢١٣/١٣ .

وجملة (**لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ**) مبينة لجملة التشبيه ومؤكدة لها ؛ ومن هنا فصلت عنها ، فلن يبقى معهم شيء يلقون به ربهم ؛ لذا كانت النتيجة : " **ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ** " الذي ليس بعده ضلال !! . وللإمعان في البعد جمع النظم القرآني بين اسم الإشارة – الموضوع للبعيد – (**ذلك**) ، ولفظ (**البعيد**) ؛ فازداد – بذلك – البعيد بعداً ، وخرج عن جادة الطريق .

" والبعيد أُريد به القوي فِي نوعه الذي لا يُرجى لصاحبه اهتداء ، فاستُعير له البعيد لأن البعيد يُقصي الكائن فيه عن الرجوع إلى حيث صدر " (١) .

وفي تعريف جملة التذييل مبالغة في فساد معتقدهم ، وضياع ظنهم النفع والخير ؛ وهكذا يمحو النظم القرآني المعجز كل أثر لعمل قدمه كافر ، وظن أنه سينفعه بحال من الأحوال .

٢ – ومما جاء على هذا النهج قوله – تعالى – : « **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ماءً حَتَّى إِذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحابٌ ظُلُماتٌ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ إِذا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَراها وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَما لَهُ مِنْ نُورٍ** » (٢) :

تتوالى المشاهد القرآنية المصورة ، للتأكيد على بوار أعمال الكافرين ، وعدم نفعها لهم بأي حال من الأحوال : وهنا يطالعنا النظم

(١) التحرير والتنوير ٥ /٢٠٢ .
(٢) النور / ٣٩ – ٤٠ .

القرآني بصورتين من عالمين مختلفين : الأولى فوق اليابسة ووسط الصحراء الواسعة ، والثانية وسط البحر العميق والأمواج الهادرة :

والمشبه في الصورتين واحد ، وهو أعمال الذين كفروا في عدم نفعها لهم . وعبر عنهم باسم الموصول " **الَّذِينَ** " لاستهجان التصريح بذكرهم مباشرة ، وتقبيح حالهم .

أما المشبه به في الصورة الأولى فهو سراب بقيعة [1] أي بأرض واسعة يحسبه الظمآن ماءً ، فيجهد نفسه في الوصول إليه ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل الأدهى من ذلك أنه وجد نفسه وحيداً أمام الله – تعالى – فاخذه بذنوبه ولم يشفع له عمله .

والصورة – كما ترى – تخاطب الحس البشري بتحويلها المعاني الذهنية المجردة إلى أمور محسوسة تشاهدها العين ؛ فلا مجال للنفس – بعد ذلك – في التردد ، وعدم الاقتناع .

ويتجلى الإعجاز القرآني بكل صوره في اختيار جزئيات هذا المثل ، أو تلك الصورة المشاهدة : فلماذا شبه الأعمال بالسراب ؟ وذلك لأن السراب براق وخادع يظن من يراه أنه وجد ضالته

---

(١) السراب هو الشيء اللامع الذي يراه الإنسان كالماء وقت الظهيرة ، والقيعة : هي الأرض الواسعة المنبسطة التي لا نبت فيها ، راجع : معاني القرآن للفراء – تحقيق: أحمد يوسف نجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل شلبي – الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر – الطبعة الأولى ٢ / ٢٥٤ . ومجاز القرآن لأبي عبيدة – تحقيق : محمد فواد سزكين – الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة – ط : ١٣٨١ هـ / ٦٦/٢ . و غريب القرآن لابن قتيبة – تحقيق : أحمد صقر – الناشر: دار الكتب العلمية – ط : ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨م – ص٣٠٥ . والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – تحقيق : صفوان عدنان الداودي – الناشر: دار القلم – الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ – ج١/ ص٤٠٥ .

المنشودة ؛ فيتعلق به الأمل ، وتبنى عليه الأوهام ، وهذا ما ينطبق تماماً على عمل الكافر ، فعمل الكافر في ظاهره الخير ، إلا أنه الخير الزائل ، والنفع اللحظي الذي سرعان ما يتبدد ، ويذهب أدراج الريح . وجعل هذا السراب بأرض واسعة منبسطة ليكون أشد وضوحاً ، وأكثر ظهوراً ، وأيسر منالاً .

وتأمل معي اختيار كلمة (**الظمآن**) ووقعها الأليم ، فلم يقل الناظر ، أو العطشان ؛ لأن السراب الخادع لو رآه الرائي أو الناظر ثم اكتشف حقيقته الزائفة لكان الأمر سهلاً هيناً ، ولكن المتعلق به شديد العطش ، يكاد يقتله الظمأ ؛ فهو شديد الحاجة شديد التعلق بالماء ، ومن هنا يكون الخسران المبين ، والحسرة القاتلة . كما أن العطشان هو الذي له رمق من ماء فيه الحياة ، أما الظمآن فهو من شارف الهلاك ، وأحاط به .

وكلمة (**حتى**) تطوي عناءً كبيراً قاساه الظمآن حتى يصل إلى هذا الماء ، فبعد هذا الجهد وتلك المشقة ، وذلك العزم المحقق – بـ (**إذا**) – على بلوغ الماء (**لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً**) ؛ فكانت خيبة الأمل ، وشدة الحسرة .

وفي لمحة خاطفة ينتقل بنا المشهد القرآني من واقع العمل الدنيوي ، إلى واقع الحساب الأخروي ، فتزداد الخسارة خسراناً ، ويشتد وقع المفاجأة . (**وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ**) ، وفي الكلام إيجاز بالحذف والمعنى وجد عقاب الله وعذابه ، وإنما ذكر لفظ الجلالة لأن فيه من الرهبة والخوف ما يبهت الكافر ويمحقه في إنكاره

لوجـــود الله – تعالى – بعد أن أنكر حسابه وعقابه فيفاجأ بعد الرغبة والمشقة بتلك الحقيقة القاهرة ، وهي وجود الله أمامه [١] .

ولا يكاد الكافر يفيق من هول هذه المفاجأة حتى يلاحقه النظم القرآني – في سرعة خاطفة أدتها فاء التعقيب والسرعة – بالمفاجأة الكبرى (**فَوَفَّاهُ حِسابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسابِ**) . وهكـــذا يـــدل التعبير علـــى الواقع الأليم الـــذي يعانيه الكافر بسبب كفره وعناده .

ومن كمال الحيرة إلى كمال الظلمة ، هكذا ينتقل بنا النظم القرآني ليرسم لنا صورة جديدة وفريدة في قوله – تعالى – : « **أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَـــمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** » : فإذا كانت أعمالهم سبباً في هلاكهم فهي ظلمات وقعوا فيها :

واللجِّيِّ : العميق الكثير الماء ، منسوب إلى اللج وهو معظم ماء البحر [٢] .

والصورة تشبه الأعمال – في ظلمتها وكونها باطلة – بظلمات متراكمة في بحر عميق يعلوه موج من فوقه موج ، ويعلو الموج سحاب ، ظلام من فوقه ظلام ، لدرجة أن الإنسان إذا أخرج يده في هذا الجو الحالك لم يكد يراها فضلاً عن أن يراها .

---

(١) راجع : التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية – د/ علي صبح – الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث ص١٠٠ .

(٢) راجع : مجاز القرآن لأبي عبيدة ٦٧/٢ . وغريب القرآن المسمى بنزهة القلوب للسجستاني – تحقيق : محمد أديب عبد الواحد جمران – الناشر: دار قتيبة – سوريا – الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م – ص ٤٠٥ . ومعاني القرآن / أبو جعفر النحاس ٥٤٢/٤ .

صورة بديعة لعمل باطل لا ينال صاحبه من ورائه خيراً ، ولا يأمل فيه نفعاً ، وقد ساعد على ذلك سوق الألفاظ ، وترتيب الجمل ونسج العبارات علـــى وجـــه معجز وكاشف : وتبدأ جزئيات الصورة البيانية بـــ « **أو** » وتحتمل عدة معاني : إما أن تكون للتخيير : فتدل الصورة الأولى على أن أعمالهم لكونها لاغية لا منفعة لها ، ولا يتحصلون منها على خير فهي كالسراب . وتدل الصورة الثانية على أن أعمالهم لكونها خالية عن نور الحق فهي كالظلمات المتراكمة . وإما أن تكون للتقسيم باعتبار الدنيا والآخرة : فهي كالظلمات باعتبار الدنيا ، وكالسراب باعتبار الآخرة . أو تكون للتنويع : فإن كانت حسنة فهي كالسراب ، وإن كانت سيئة فهي كالظلمات [١] .

وجمع (**ظُلُمَاتٍ**) للدلالة على أن الكافر – كما يقول أبي بن كعب – كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومصيره إلى ظلمة [٢] . و لبيان شدة هذه الظلمات ، يقول ابن عاشور : " والجمع مستعمل في لازم الكثرة وهو الشدة ، فالجمـــع كناية ؛ لأن شدة الظلمة يحصل مـــن تظاهر عـــدة ظلمات . ألا ترى أن ظلمة بين العشاءين أشد من ظلمة عقب الغروب ، وظلمة العشاء أشد مما قبلها " [٣] .

ويرتفع النظم القرآني بالمعنى درجات ويتسفل بعملهم دركات ، فهذه الظلمات الكثيفة " **فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ** " ، و" البحر وحده خطر على من

---

(١) راجع : مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٤٠٠/٢٤ . وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـــ ٤ /١٠٩ .

(٢) راجع : معاني القرآن / أبو جعفر النحاس ٥٤٢/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٥٥/١٨ .

يركبه ، فما بالك إذا كان هذا البحر ملفوفاً بالظلمات من كل جانب، وهذه الظلمات لا سبيل إلى الخلاص منها [١] .

وقال – سبحانه – : " **كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ** " ، ولم يقل : " **ظلمات بحر**" بالإضافة للدلالة على كونها مسقرة فيه فلا تفارقه ، وللمبالغة في إحاطتها له من كل جانب ، وشدتها ، وكثرتها ، وكثافتها .

وأمواج البحر كثيفة ومتلاطمة ، ويزداد الأمر تعقيداً بكون الأمواج تناطح السحاب ؛ مما يجعل الظلمة تزداد إظلاماً ، فلا مجال لضوء يتسلل من نجم أو قمر، ولا أمل في رؤية تعطي بصيصاً من الأمل ؛ لذا كانت النتيجة : " **إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** " ، وفيه تأكيد لشدة الظلمات ، وقطع بعدم الرؤية ، أو حتى مقاربتها ، فالمعنى – كما يقول أبو جعفر النحاس – لم يقارب رؤيتها ، وإذا لم يقارب رؤيتها فلم يرها رؤية بعيدة ولا قريبة [٢] . ويقول الفخر الرازي : " كاد معناه المقاربة ، فقوله : " **لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** " معناه لم يقارب الوقوع ، ومعلوم أن الذي لم يقارب الوقوع لم يقع أيضاً " [٣] .

وعبر باليد لتأكيد عدم الرؤية ؛ لأن اليد أقرب شيء يراه الإنسان ، ألا ترى أنك إذا أردت أن تختبر عينيك لتعرف مقدار نظرك تضع يدك أمامها مباشرة . فما أروع هذا النظم العجيب !!

---

(١) خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية للأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني (رحمه الله) الناشر: مكتبة وهبة – الطبعة الأولى: ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م – ج٢ ص٢٢٦ .

(٢) انظر معاني القرآن للنحاس ٥٤٢/٤ .

(٣) مفاتيح الغيب للفخر الرازي ٤٠١/٢٤ .

ثم تُختتم الآية بهذا التذييل المقـــرر لتلك المعانـــي السابقة " **وَمَـــنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ** " . والمراد – هنا – النور المعنوي الذي يفيد عدم نوال هذا الكافر شيئاً من الهداية الربانية ، إذ الهداية منه – سبحانه – لا من غيره .

" وخلاصة ما يستنبط من التشبيهين أنهم في حيرة ، يطلبون ما ينجيهم فلا يجدونه ، وإذا توهموه فـــي أمـــر زال الوهم بالحقيقة المبصرة ، وأنهـــم بسوء أعمالهم فـــي ظلمات بعضها فوق بعض ، وهي في نفوسهم ، وما يحيط بهم ظلمة داكنة لا يجدون بصيصًا من الأمل يفتحون أعينهم لرؤيته " [١] .

وفي النهاية فقد " سما التصوير القرآني إلى حد الإعجاز الإلهي في الإبداع الرباني ؛ لتفيض كل صورة قرآنية بأروع ما عرفته البشرية من العمق والدقة والإحاطة والشمول ، وشرف الغاية ونبل المضمون ، وروعة التأثير على النفس والعاطفة ، وقوة الإفحام بالحجة الدافعة التي يخرُّ لها العالم ساجدًا لربه تعالى " [٢] .

(١) المعجـــزة الكبرى القرآن/ محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبـــي زهـــرة – الناشر: دار الفكـــر العربـــي ص ١٨٠ .

(٢) التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية د/ علي صبح / ٩٧ .

المبحث الثالث

الدلالة على هول الموقف يوم القيامة

١ – قال – تعالى – : " **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ** " (١) :

جاءت هذه الآيات لتعرض لنا مشهداً عنيفاً من مشاهد يوم القيامة التي تكفلت بعرضها سورة القمر ، وما فيه من أهوال .

والمشهد مزلــزل يصف لنا حركــة الخلائق عند الخروج من القبور والتوجه إلــى أرض المحشــر ، والرعب متمكن من قلوبهم ، والذل باد على وجوههم ، فلا مفر ولا ملجأ من الله إلا إليه .

والصورة دقيقة ومعبرة فهي تمثل لحظة خروجهم من القبور بالجراد المنتشر، وهنا يتجلى الإعجاز القرآني بكل صوره ؛ فاختار النظــم القرآنــي التصويــر بالجراد لعدة أسباب :

أولها : أن الجراد مثل في الكثرة والتموج ، فيقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد (٢) . لدرجة أنه – من كثرته – يحجب ضوء الشمس ، وهذا ما ينطبق على لحظة خروج الناس من القبور .

---

(١) القمر ٦ – ٧ – ٨ .

(٢) انظر : الكشاف للزمخشري ٤٣٢/٤ .

ثانيهـــا : اختلاف الأشكـــال فـــ" الجـــراد أصناف مختلفة : فبعضه كبير الجثـــة ، وبعضـــه صغيرها ، وبعضه أحمر ، وبعضه أصفر ، وبعضه أبيض " [١] . وهكذا يكون حال الناس يوم القيامة .

ثالثها : قصد الجهة ؛ لأن الجـــراد يقصـــد جهات معينة ، وكـــذلك هـــؤلاء الناس يتوجهون صوب المنادي إلـــى أرض المحشـــر . وهنا ملمـــح لطيف ينبغي الإشارة إليـــه ، وهـــو أن الله – عز وجل – صورهم – في هذا المشهد – بالجراد ، بينما صورهم – في مشهد – آخر بالفراش ، وذلك في قوله – تعالى – : " **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** " [٢] . ويرجـــع ذلك إلـــى أنهم عقب خروجهم من القبور مباشرة يكونون فـــي حالة تموج وفـــزع ، لا يدرون أين يذهبون ، فحـــالهم كحال الفراش ؛ لأن الفراش لا جهة له يقصدها ، وبعـــد سماع المنادي يتوجهون إلـــى أرض المحشر كالجراد ؛ لأن الجراد له وجه يقصده ، فهما تشبيهان باعتبار وقتين [٣] .

رابعها : الاضطراب والتداخل ، فلا نظام له ولا قائد ، وكذلك الناس فمن شدة فزعهم يضطربون ويتداخلون ويذهب بعضهم ويأتي دون نظام ، لذا لم يشبههم بالطير ؛ لأن الطير تسير في سرب منتظم .

---

(١) حياة الحيوان الكبرى / لمحمد بن موسى بن عيسى الدميري – الناشر: دار الكتب العلمية ، بيروت – الطبعة: الثانية ، ١٤٢٤ هـــ ج١ ص٢٦٨ .

(٢) القارعة / ٤ .

(٣) راجع : البحر المحيط لأبي حيان ٣٧/١٠ . و حياة الحيوان الكبرى لمحمد بن موسى بن عيسى الدميري ٢٦٨/١ . وروح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي – تحقيق: علي عبد الباري عطية – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة: الأولى ١٤١٥ هـــ ج١٤ ص٨٠ .

والمشهد مفزع ورهيب منذ بدايته ، فتبدأ جزئياته بالأمر " **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ** " تسلية للنبي – صلى الله عليه وسلم – وفيه تهديد ووعيد للمشركين ؛ لذا جاء بعده " **يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ** " أي فيه من الأهوال مافيه !! فالنكر معناه الأمر الصعب الذي لايُعرف ، أو الأمر الفظيع الذي تنكره النفوس ؛ لأنها لم تعهد مثله ، وهو هول يوم القيامة (١) . وناسب هذا الهول وتلك الشدة تنكير " **شَيْءٍ** " للدلالة على أن الأمر جلل عظيم لا تطيقه النفوس ، ولا تقوى عليه .

وفي قوله – تعالى – : " **خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ** " كناية عن الذلة والانخزال ، وإنما خص الأبصار ووصفها بالخشوع – دون سائر الجسد – والخشوع إنما يكون للجسد كله – لأن أثر ذلة كل ذليل ، وعزة كل عزيز تتبين في ناظريه دون سائر جسده (٢) . وذكر صاحب التحرير والتنوير أن خشوع الأبصار استعارة للنظر إلى أسفل من الذل (٣) . ومن المعلوم أن كل خشوع في القرآن إنما هو لله – تعالى – يأتي وصفاً أو بياناً لحال المؤمنين في الدنيا مطرداً بلا تخلف بصريح العديد من الآيات القرآنية (٤) ، فإذا جاء من الكافرين

---

(١) انظر : المفردات للراغب / ٨٢٤ . و أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥ / ١٦٤ .

(٢) راجع : جامع البيان عن تأويل آي القرآن للطبري تحقيق: د/عبد الله بن عبد المحسن التركي – الناشر: دار هجر– ط١ : ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م – ج٢٢ ص١١٧ . والكشاف ٤٣٢/٤ ، ومفاتيح الغيب ٢٩٣/٢٩ .

(٣) انظر التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١٨٤/٢٩ .

(٤) كقوله – تعالى – : **{ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا }** آل عمران / ١٩٩ . وقوله – تعالى – : **{ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا }** الإسراء /١٠٧ – ١٠٩ . وقوله – تعالى – : **{ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ }** الأنبياء /٩٠ . وقوله – تعالى – : **{ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ }** المؤمنون /١– ٢ .

والمجرمين فإنما يكون ذلك في الآخرة كما جاء في بعض الآيات أيضاً (١) ، فما سر ذلك ؟ ولعل السر في ذلك أن خشوع الكفار لا يكون إلا بعد أن يأتي اليوم الذي يوعدون فيخشعوا خوفاً ورهبة وذلة ، على حين يخشع المؤمنون في الدنيا ، عن صدق إيمان وتقوى ، وخشية لله (٢) .

ولأن الموقف شديد ، ورهيب جاء قوله – تعالى – : " **مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ** " : ومعنى قوله – تعالى – : " **مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ** " مسرعين مادى أعناقهم إليه انقياداً . وقيل : ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم ، وقيل: أصل الهطع مد العنق ، أو مد البصر ، ثم يكنى به عن الإسراع ، أو عن النظر والتأمل ، وقيل : مادي أعناقهم مع هز ورهق ، ومد بصر نحو المقصد ، إما لخوف ، أو طمع . وعلى أي وجه تأولوا الكلمة ، يظل لها ملحظ الذلة والخضوع في شخوص البصر ، أو في الإسراع ومد العنق (٣) . والجملة

---

(١) ومنها قوله – تعالى – : **{ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ }** الشورى / ٤٤ – ٤٥ . وقوله – تعالى – : **{ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ }** القمر /٦ – ٧ . وقوله – تعالى – : **{ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ }** المعارج /٤٣ – ٤٤ . وقوله – تعالى – : **{ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ }** . النازعات ٨ – ١٢ . وقوله – تعالى – : **{ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً }** الغاشية / ١ – ٤ .

(٢) راجع : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق لعائشة محمد عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ – الناشر: دار المعارف – الطبعة الثالثة / من ٢٢٧ إلى ٢٢٩ .

(٣) راجع : الكشاف ٤٣٢/٤ . ومفاتيح الغيب ٢٩ / ٢٩٣ . والبحر المحيط ٣٧/١٠ . وروح المعاني ٨٠/١٤ . والإعجاز البياني للقرآن لبنت الشاطئ / ٥٥٩ . وغيرهم .

تثير في النفس سؤالاً مفاده : فماذا يكون حال الكافرين ؟ أو ماذا يقولون عند ذلك ؟ فجاء الجواب :" **يَقُولُ الْكافِرُونَ هذا يَوْمٌ عَسِرٌ** " ؛ ومن هنا فصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال ؛ تصويراً لحالهم ، وما هم عليه من هم وغم ، وكرب ، وسوء حال . " وفي إسناد القول المذكور إلى الكفار تلويح بأن المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدة " [١] .

٢- ومن هذا القبيل قول الله – عز وجل – : " **الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** " [٢] :

عندما تقرأ سورة القارعة يطالعك هذا المشهد العنيف المزلزل الذي يهز الكيان ، والوجدان : فالبداية " **الْقَارِعَةُ** " ، والقارعة اسم من أسماء القيامة ؛ لأنها تقرع قلوب الناس بهولها ، والقرع هو الضرب بشدة واعتماد ، أو ضرب شيء على شيء ، ومنه قرعته بالمقرعة [٣] . ولشدة هول الموقف ، وعظمته كان لابد للنفس أن تتساءل " **مَا الْقَارِعَةُ** " ، فما استفهام فيه معنى الاستعظام والتعجب لأمر هذه القارعة ، والاسم الثاني إذا اقترن به حرف الاستفهام للتعظيم والتعجب كان المناسب الإظهار . وكرر" **الْقَارِعَةُ** " للتعظيم ، والتهويل ، والتخويف ،

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود – الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت – ج٨ ص١٦٨ .

(٢) القارعة / ١ – ٥ .

(٣) راجع : جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري ٥٧٣/٢٤ . والمفردات للراغب / ٦٦٦ ، ومفاتيح الغيب ٢٦٥/٣٢ ، والبحر المحيط ٥٣٢/١٠ ، وغيرهم .

والترويع [١] . ثم أكد هذا التهويل بقوله – تعالى – : " **وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ** " ؛ وفيه دلالة واضحة على عدم علمهم ، وإحاطتهم بها ؛ ويرجع ذلك إلى أنها من الشدة بحيث لا يبلغها وهم أحد ، ولا فهمه ، كأنه – تعالى –

قال : قوارع الدنيا جنب تلك القارعة لا تساوي شيئاً [٢] .

وبعد هذا الإبهام المشوق يأتي هذا المشهد المرجف الذي يزيل هذا الإبهام ، ويدل على شدة هول الموقف يوم القيامة : " **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** " ، ولأن الموقف شديد وعصيب تتوالى أساليب الإثارة ؛ وتتابع الأسئلة ؛ فالجملة السابقة تثير في النفس سؤالاً مفاده : متى تكون هذه القارعة ؛ فجاء الجواب " **يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** " ؛ لذا فصلت هذه الجملة عن سابقتها . وهو مشهد ثنائي يبين حال الخلائق والمخلوقات يوم القيامة : فالمشهد الأول : يصور الناس يوم القيامة بالفراش المتفرق في كل مكان ، وهنا تتجلى الدقة بكل معانيها ؛ فلماذا صور النظم القرآني الناس في هذا المشهد بالفراش ؟ ويرجع ذلك إلى أن الناس من هول الموقف يوم

---

(١) راجع : البحر المحيط ٥٣٢/١٠ . و البرهان في علوم القرآن للزركشي – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي – الطبعة الأولى : ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م – ج٢ ص٤٨٤ ، ج٣ ص١٧ ، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي – تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ١٣٩٤هـ– ١٩٧٤ م – ج٣ ص٢٢٥ ، ومعترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م – ج ١ ص ٢٩٥، والتحرير والتنوير ٣٠ /٥١٠ .

(٢) راجع : مفاتيح الغيب ٣٢ / ٢٦٦ .

القيامة لا يدرون – مع كثرتهم – أين يذهبون ، فينتابهم الضعف ، وتستولي عليهم الذلة ، والمسكنة ، يذهبون ويجيئون في حيرة ودهشة ، فلا قائد يوجههم ، ولا جهة تجمعهم ، يتهافتون على الهلاك كتهافت الفراش على النار ، لذا قال جرير :

إِنَّ الْفَرَزْدَقَ مَا عَلِمْتُ وَقَوْمَهُ * مِثْلُ الْفَرَاشِ غشين نَارَ الْمُصْطَلِي**

كما يضرب به المثل في الطيش ، والهوج ، فيقال : (أطيش من فراشة) ؛ لأنها تلقي نفسها في النار [1] . وقد ذكرت السر في اختيار الفراش في هذا المشهد ، والجراد في مشهد آخر في النموذج السابق[2].

ومن حال الخلائق إلى حال المخلوقات ينتقل بنا النظم القرآني في مشهد جديد من مشاهد القدرة والعظمة : " **وَتَكُونُ الْجِبالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ** " : والعهن هو الصوف ، والمنفوش بمعنى المنشور [3] ، وهنا يصور لنا الجبال الشاهقة في اختلاف ألوانها ، وفي خفتها بعد صلابتها ، وتطايرها وتفرق أجزائها بعد رسوخها وثباتها بالصوف المتطاير . صورة تعكس لنا عظمة القدرة ورهبة الموقف ، فالجبال الرواسي التي هي من مظاهر العظمة والقدرة والتي خلقت لتثبت الأرض تطيش في الهواء كأضعف شيء يتخيله الإنسان ،

---

(١) انظر: فتح القدير للشوكاني - الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ ج٥ ص٥٩٤ . وموسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي تأليف عبد اللطيف عاشور الناشر: القاهرة ص٣٢٦ .

(٢) راجع البحث / ص٢٨ .

(٣) راجع : معاني القرآن للفراء ٢٨٦/٣ ، ومعاني القرآن للأخفش تحقيق : الدكتورة هدى محمود قراعة – الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة الأولى : ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م – ج٢ ص٥٨٣ ، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج الناشر: عالم الكتب – بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م – ج ٥ ص ٣٥٥ ، والمفردات للراغب / ٨١٩ .

فبخلقها وإفنائها تتجلى عظمة القدرة الإلهية . وبتطايرها في الهواء يوم القيامة يتجلى الرعب بكل معانيه .

ولاحظ هذا الترابط القوي بين الصورتين : صورة الناس في انتشارهم وضعفهم ، وصورة الجبال في تطايرها وخفتها ، والذي يدل على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى صارت كالعهن المنفوش ، فكيف يكون حال الناس يوم القيامة عند سماعها !! .

" وإعادة كلمة (**تَكُونُ**) مع حرف العطف للإشارة إلى اختلاف الكونين ، فإن أولهما كون إيجاد ، وثانيهما كون اضمحلال ، وكلاهما علامة على زوال عالم وظهور عالم آخر " (١) .

ومن الملاحظ أن (**العهن**) موصوف – في هذه السورة – بالمنفوش ، بينما جاء على إطلاقه في قوله – تعالى – في سورة المعارج – : " **وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ** " (٢) ؛ ولعل السر في ذلك أن السياق في القارعة أشد هولاً من السياق في المعارج ، فجاء في المعارج – : " **تَعْرُجُ الملائكة والروح إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ فاصبر صَبْراً جَمِيلاً إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً** " (٣) ، فهناك خلاف على أن المقصود باليوم هو اليوم الآخر ، وإن كان المقصود به اليوم الآخر ، فلم يذكر إلا طول هذا اليوم ، وعروج الملائكة والروح فيه ، أما القارعة فناسب التهويل فيها أن يذكر أن الجبال تكون كالعهن المنفوش ، فكونها كالعهن المنفوش أعظم وأهول من أن تكون كالعهن من غير نفش . كما أن التوسع والتفصيل

(١) التحرير والتنوير ٥١٣/٣٠ .

(٢) المعارج / ٩ .

(٣) المعارج /من ٤ إلى ٧ .

في ذكر القارعة يناسبه التفصيل في وصف العهن بالمنفوش ، بخلاف الإجمال في المعارج ، فلم يزد على أن يقول : " **فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ". بالإضافة إلى مراعاة الفواصل في كلا السورتين ففي القارعة قال – تعالى – : " **يَوْمَ يَكُونُ النَّاس كالفراش المبثوث وَتَكُونُ الجبال كالعهن المنفوش** " ، فناسبت كلمة **(المنفوش)** كلمة **(المبثوث)** . وفي المعارج قال – تعالى – : " **يَوْمَ تَكُونُ السمآء كالمهل وَتَكُونُ الجبال كالعهن**" . فناسب **(العهن)** **(المهل)** [١] .

٣- قال – تعالى – : " **وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذا أُلْقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** " [٢] :

في مشهد جديد ومهيب من مشاهد يوم القيامة يرسم لنا النظم القرآني في هذه الآيات صورة للنار وهي تستقبل الكافرين في نهم شديد ، ورغبة أكيدة في الانتقام من هؤلاء العصاة . وهي ضمن سلسلة من آيات سورة الملك التي تجاوزت عالم الأرض الضيق إلى عالم الكون الفسيح ، بما فيه من عجائب وغرائب وخلائق تشارك الإنسان دنياه ، والعالم الأخروي بما فيه من صور مفزعة لجهنم النهمة ، المتغيظة . والتي تتهيأ منذ أن خلقها الله – تعالى – لاستقبال ومعاقبة العصاة ، والخارجين عن إطار العقيدة .

---

(١) راجع : لمسات بيانية في نصوص من التنزيل – المؤلف : فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل السامرائي– الناشـــر: دار عمار للنشر والتوزيع – عمان – الأردن – الطبعـــة الثالثة ١٤٢٣ هـــ – ٢٠٠٣ م – ص ١٩٨ وما بعدها .

(٢) الملك / ٦–٧–٨ .

وقد اتخذ النظم القرآني من التصوير الاستعاري وسيلة من وسائل عرض هذا المشهد الرعيب المخيف . ويتجلى هذا التصوير في عدة مواضع متلاحقة ، ومتشابكة ، يؤازر بعضها بعضاً :

وذلك في قوله – تعالى– : " **سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً** " : والشَّهيق : طـــول الزفير ، وهو رد النفس ، وأصله من جبل شاهق أي : متناهي الطول . ويوصف بالفظاعة والقبح ، وقيل هو كصوت الحمار [١] . ويطلق على الصوت الخارج من الجوف عند تضايق القلب من الحزن الشديد ، والكمد الطويل ، وهو صوت مكروه السماع [٢] .

والشهيق – هنا – مستعار لصوت لهب النَّار ؛ لما بينهما من الشدة والفظاعة . والاستعارة – هنا – أبلغ ، يقول العسكري : " حقيقة الشهيق هاهنا الصوت الفظيع ؛ وهما لفظتان ، والشهيق لفظة واحدة فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان " [٣] . وتصوير جهنم بالإنسان الذي له صوت يُسمع تشخيصاً لحالها ، وشدة غيظها من هؤلاء الكفرة ، وتحويلها من جماد لا يحس إلى متحرك يقول ، ويتكلم ، ويرى ويبصر حال الظلمة والكفرة .

وقوله – تعالى – : " **وَهِيَ تَفُورُ** " والفوران شدة الغليان من فارت القدر ، والماء مـــن العين ، وهومستعار لارتفاع النار وقوة توهجها ، فكأنها من شدة توهجها وارتفاعها تكاد تفور بهم كما يفور

---

(١) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٩٩/٥ ، والصناعتين للعسكري / ٢٧١ ، والمفردات للراغب / ٤٦٨ .

(٢) انظر: الموسوعة القرآنية (خصائص السور) لجعفر شرف الدين – تحقيق : عبد العزيز بن عثمان التويجزي– الناشر: دارالتقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت – ط١– ١٤٢٠ هـ – ج١٠ ص٩٠ .

(٣) الصناعتين / ٢٧١ .

الماء . والفوران أبلغ لما فيه من الدلالة على شدة التوهج والغليان . وتعريفها بالضمير لكون الحديث عنها لا عن غيرها .

وقوله – تعالى – : " **تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ** " : أي تقطع عليهم غيظاً . وقيل : تنشق غيظاً على الكفار(١) . والمقصود تكاد تتفاصل أجزاؤها من الغيظ الذي يُحدث حركات تفجُّر داخلها (٢) . والتميُّز مستعار لانشقاق النار وتقطعها من غير تباين " والاستعارة أبلغ ؛ لأن التميز فى الشىء هو أن يكون كل نوع منه مبايناً لغيره وصائراً على حدته ، وهو أبلغ من الانشقاق ؛ لأن الانشقاق قد يحصل فى الشىء من غير تباين " (٣) .

والغيظ هو الغضب الشديد واستعير – هنا – لشدة توهج النار وغليانها ، " وإنما ذكر الغيظ ؛ لأن مقدار شدته على النفس مدرك محسوس ، ولأن الانتقام مما يقع على

قدره ؛ ففيه بيان عجيب وزجر شديد لا تقوم مقامه الحقيقة البتة " (٤) . واستخدم فعل المقاربة " **تَكادُ** " لمشارفتها للغيظ ، فصارت حياً ناطقاً ، ومعبراً .

والمشهد – كما ترى – حافل بالحياة والحركة فهذه جهنم تتحول إلى كائن حي يشتد غيظه وغضبه عندما يرى هؤلاء الخارجين عن دين الله ، فمنذ أن خلق الله الخلق وهي في حالة استعداد وتأهب لهذه اللحظة

---

(١) انظر : معاني القرآن للفراء ٣/ ١٧٠. وغريب القرآن لابن قتيبة – تحقيق : أحمد صقر – الناشر: دار الكتب العلمية ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م – ص٤٧٤ .

(٢) انظر : البلاغة العربية لعبد الرحمن بن حسن حبنّكة الميداني – الناشر: دار القلم دمشق – الدار الشامية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م – ج٢ ص٢٥٨ .

(٣) الصناعتين / ٢٧١ .

(٤) الصناعتين / ٢٧١ .

الفارقة ، فقد نفذ صبرها وآن لها أن تشبع رغبتها المكنونة في الانتقام ممن عرفوا الحق فأنكروه ، ورأوا الباطل فاتبعوه .

وقد قدم النظم القرآني موجبات هذا العذاب في قوله – تعالى – : " **وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ** " إذ كيف يكفرون بالله وهو ربهم ومالك أمورهم ، ومدبر أحوالهم . ولما كانوا أهلاً لما تطلبه جملة الصلة من الكفر بمن خلقهم قدم الحديث عنهم . وتعريفهم بالاسم الموصول لا ستحقاقهم ذلك .

" وجملة " **وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** " حال أو معترضة لإنشاء الذم ، وحذف المخصوص بالذم لدلالة ما قبل بئس عليه ، والتقدير : وبئس المصير عذاب جهنم ، والمعنى : بئست جهنم مصيراً للذين كفروا " (١) .

وعبر بأداة الشرط " **إذا** " للدلالة على تحقق الجواب بتحقق الشرط . وقال – تعالى – : " **أُلْقُوا فِيهَا** " دون دخلوها ؛ للدلالة على قوة الدفع ، وعدم الرفق ، فهم يُطرحون في جهنم كما يُطرح الحطب في النار العظيمة ، وفيه – إلى جانب ذلك – إهانة لهم ، وحط من شأنهم .

وفي ختام هذه المشاهد المؤلمة بالاستفهام التوبيخي " **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ** " زيادة في إهانتهم وتجريحهم ، ودلالة على استحقاهم للعذاب ، وارتقاء في تأنيبهم ؛ ليزدادوا تحسراً على حالهم .

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٢٩ .

المبحث الرابع

بيان أثر الكلمة نفعاً وضراً

١- ومن ذلك قول الله – تعالى – : " **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ** " [١] :

" إن كلمات مفعمة بالتشجيع ، مصبوغة بالإصرار والتحدي قد تصنع في النفس ما لا تصنعه الملايين ولا القصور، وقد تبعث فيها من الأمل ما لا يقدر عليه الأطباء والعقاقير " [٢] ، فبالكلمة تُبنى المجتمعات ، وبالكلمة تُهدم ، وبالكلمة تقوم الأسر ، وبالكلمة تُفرق ، وبالكلمة يصير الحرام حلالاً ، وبها يصير الحلال حراماً ؛ ولما كان للكلمة هذه الأهمية ركز عليها النظم القرآني في هذا السياق المعجز ، وصورها للعيان بصور تجعل الإنسان يعرف مدى أهميتها ، ويدرك عظيم خطورتها :

وأُفرغت هذه المعانى في صورة مثلين مشاهدين ، ولوحتين متقابلتين ، إحداهما تمثل جانب الخير ، والأخرى تمثل جانب الشر في حالة تصويرية تعجيبية ، وهو نهج انتهجته سورة (إبراهيم) لسوق معانيها ، والتعبير عن أغراضها :

---

(١) إبراهيم / من ٢٤ إلى ٢٦ .

(٢) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال / لحسين بن محمد المهدي – راجعه : الأستاذ عبد الحميد محمد المهدي– مكتبة المحامي : أحمد بن محمد المهدي – ص ١٢٦ .

أما الصورة الأولى : ففي قوله – تعالى – : " **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**" ، وفيها يصور النظم القرآني الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، ثابتة الأصل والجذور ، ممتدة الأغصان والفروع ، عطاؤها كثير ، ونفعها غزير ، لا ينقطع ثمرها ، ولا ينفد خيرها ، فأكلها دائم وظلها ، والقصد من وراء ذلك ترغيب الناس في الكلام الطيب .

وإذا تأملنا هذه الصورة وجدناها تنتهج طريق الترقي في الأسلوب ؛ وهذا لون من ألوان الإقناع يمتاز به النظم القرآني : فصور الكلمة الطيبة – أولاً – بالشجرة الطيبة ، وما أجمل أن تكون الشجرة طيبة !! ولم يكتف بهذا الوصف حتى لا يتطرق ذهن المستمع إلى أن الشجرة قد تكون طيبة ، ولكنها ضعيفة تتعاورها الرياح ؛ فجاء بالوصف الثاني : " **أَصْلُها ثابِتٌ** " ، فجمعت الشجرة – بذلك – بين جمال المنظر وثبات الأصل والجزور ، ثم قد يتخيل الرائي أن هذه الشجرة الطيبة عميقة الجزور ولكنها قصيرة الفروع ، لا تعجب الزراع ؛ فجاء الترقي الثالث : " **وَفَرْعُها فِي السَّماءِ** " ؛ فاكتمل بذلك جمال المنظر الذي جمع بين ثبات الأصل وامتداد الفروع . وقد تكون الشجرة ثابتة الأصل ممتدة الفروع ؛ مما يعجب الناظرين ولكن لا عطاء لها ولا ثمر ؛ فلا فائدة منها إلا حسن المنظر ؛ فجاء الترقي الرابع : " **تُؤْتِي أُكُلَها** " فاكتمل الجمال وتحقق النفع ، ولكن يبقى في النفس شيء يجول بداخلها ، فالشجرة وإن اجتمع لها جمال المنظر مع عظيم العطاء إلا أنه العطاء المؤقت ، والنفع اللحظي ؛ فجاء الترقي الأخير : " **كُلَّ حِينٍ** " باعتبار أن الحين اسم كالوقت يصلح لجميع

الأزمان كلها طالت أم قصرت كما يقول الزجاج [١] ؛ فاكتمل- بذلك - للشجرة كل مقومات الجمال المبهر ، والنفع الدائم ، ولم يبق للنفس أن تسأل - بعد ذلك - عن شيء . وهكذا تكون الكلمة الطيبة ، فتتمكن في الأنفس ، ويظل تأثيرها ونفعها إلى ما شاء الله لها . فما أعظم هذا التعبير المعجز !! وما أجمل هذا التصوير المبهر !!

وجاءت هذه الصورة في معرض الاستفهام " **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً** " لإيقاظ الذهن ليترقب ما يرد بعد هذا الكلام ، والتشويق إلى معرفة هذا المثل . وصيغ في صورة الماضي المستفاد من حرف الاستفهام (**لم**) التي تنفي الفعل في الزمن الماضي ، ودلالة الفعل الماضي (**ضرب**) ؛ لزيادة التشويق لمعرفة هذا المثل وما مُثِّل به . والاستفهام إما أن يكون على سبيل الإنكار نزّل المخاطب منزلة من لم يعلم ؛ فأنكر عليه عدم العلم ، أو مستعمل في التعجب من عدم العلم بذلك ، مع أنه مما تتوفر الدواعي على علمه ، أو للتقرير وهو كناية عن التحريض على العلم بذلك [٢] .

وفي تكرير الاستفهام بكيف زيادة في التعجيب من أمر هذا المثل، وأنه من عند الله - تعالى - فهو مثل مخصوص ؛ لذا أسند ضربه إلى الله تعالى .

والكلمة الطيبة قيل : هي الإيمان ، أو كلمة التوحيد ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وقيل كل كلمة حسنة

(١) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٦١/٣ .

(٢) انظر : التحرير والتنوير ٢٢٣/١٣ .

كالتسبيحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة ، وغير ذلك [١] ، وهذا ما أميل إليه ؛ وذلك من باب التوسعة ، وحث المؤمن على أن لا ينطق إلا بالكلام الطيب . والشجرة الطيبة قيل : النخلة ، وقيل : كل شجرة مثمرة طيبة الثمار؛ كالنخلة وشجرة التين ، والعنب والرمان ، وغير ذلك [٢] ،

وهذا ما أراه مناسباً أيضاً . والطيب مستعار للنفع بجامع حسن الوقع في النفوس كوقع الروائح الذكية ، واختار الطيب لأن وقعه في النفوس أشد ، وفيه دلالة على أن هذه الشجرة كريمة المنبت ، والأصل في الشجرة له لذة في المطعم [٣] .

والوصف الثاني : " **أَصْلُها ثابِتٌ** " فيه دلالة على التمكن ورسوخ الأصل ، فلا تؤثر فيها الرياح ، مهما كانت شدتها ، وجمعت إلى ثبات الأصل امتداد الفروع " **وَفَرْعُها فِي السَّماءِ** " وقصد بالسماء جهة العلو والصعود ، ولم يرد المظلة ، وامتداد الفروع يزيد الشجرة حسناً وبهجة ؛ مما يبهر العيون ، ويسر الناظرين . " وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين :

الأول : أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ، ورسوخ العروق .

---

(١) انظر : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣ /١٦٠ ، ولطائف الإشارات للقشيري - تحقيق : إبراهيم البسيوني – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – الطبعة الثالثة – ٢٤٩/٢ ، والكشاف ٥٥٣/٢ ، ومفاتيح الغيب ٩٢/١٩ ، وغيرهم .

(٢) انظر: الكشاف ٥٥٣/٢ . ومفاتيح الغيب ٥٢/١٩ .

(٣) انظر: البحر المحيط ٦ / ٤٣٢ ، والتحرير والتنوير ١٣/ ٢٢٤ .

والثاني : أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض ، وقاذورات الأبنية ، فكانت ثمراتها نقية ظاهرة ، طيبة عن جميع الشوائب " [1] . والطباق الواقع بين " **أَصْلُها** " ، و" **فَرْعُها** " له دوره في إيضاح حال هذه الشجرة ، وحسنها المتمثل في جمعها بين هذين الوصفين .

ثم يكتمل جمال تلك الشجرة بالوصف الرابع " **تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها** " ، ففيه دلالة على ديمومة النفع وامتداد العطاء إلى ما شاء الله ، فلم يعد للإنسان – بعد ذلك – مطمع . وفي جملة " **تُؤْتِي أُكُلَها** " مجاز عقلي ففعل الإيتاء مسند إلى غير فاعله الحقيقي ؛ لأن الشجرة لا تؤتي الأكل ، وإنما المؤتي هو الله (تعالى) .

وفي التقييد في قوله – تعالى – : " **بِإِذْنِ رَبِّها** " بيان لطلاقة القدرة الربانية ، وإظهار لطاعة الشجرة لآمرها (سبحانه وتعالى) .

وذُيلت هذه الصورة بقوله – تعالى – : " **وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**" لأن في ضرب الأمثال زيادة إفهام ، وتذكيراً وتصويراً للمعاني ؛ وذلك لأن المعاني العقلية المحضة لا يقبلها الحس والخيال والوهم ، فإذا ذكر ما يساويها من المحسوسات ترك الحس والخيال والوهم تلك المنازعة ، وانطبق المعقول على المحسوس ، وحصل به الفهم التام ، والوصول إلى المطلوب [2] .

وأما الصورة الثانية : ففي قوله – تعالى – : " **وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ** " : وهي

---

(١) مفاتيح الغيب ١٩ /٩٠ .

(٢) انظر الكشاف ٢/٥٥٤ ، ومفاتيح الغيب ١٩ / ٩٢ وما بعدها .

مع ما قبلها من أروع المتقابلات القرآنية ، وفيها يصور الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة التي ليس لها أصل ثابت ، ولا فرع نابت ، منعدمة العطاء ، معرضة للفناء ، كل من يراها لا تعجبه ؛ والغرض من ذلك تنفير الناس من الكلام الخبيث بصورة حسية وملموسة .

وإذا كانت الصورة الأولى قد ارتفعت بالكلمة الطيبة درجات ، فهذه الصورة قد تسفلت بالكلمة الخبيثة دركات ، والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر ، " وخبثها ما صحبها من نجاسة الشرك ، فخبث الكلمة لصدورها عن قلب هو مستقر الشرك ومنبعه " (١) . وقيل كل كلمة قبيحة لا يرضاها الله – تعالى – وهو الأفضل . وجاء وصفها – **أولاً** – بالشجرة الخبيثة ، والشجرة الخبيثة كل شجرة قبيحة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل وغيرها ، ووصفها بالخبث لاشتمالها على كل المضار ، فهي خبيثة الشكل ، والطعم ، والرائحة .

ولم يكتف النظم القرآني بوصف هذه الشجرة من الظاهر ، بل امتد الوصف ليتناولها من أصلها ، وذلك في قوله – تعالى – : " **اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ** " ؛ وذلك لبيان أنها غير ثابتة ، تتعاورها الرياح فتقتلعها من جذورها الواهية ، فالاجتثاث هو القطع والاستئصال ، وشجرة مجتثة ليس لها أصل في الأرض . ومعنى اجتثت في اللغة : أُخذت جثتها كاملة (٢) . وهو المناسب للمقام هنا ؛ إذ فيه استئصال تام لجذور هذه الشجرة ؛ وبذلك ينعدم الأمل في معاودتها . وينقطع الرجاء في نفعها . ومن أسرار وصف الشجرة الخبيثة بهذا

(١) مفاتيح تفسير القشيري (لطائف الإشارات) ٢٤٩/٢ .

(٢) راجع : معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٦١/٣ ، ولسان العرب مادة (جثث) .

الوصف – أيضاً – أن الناس لا يتركونها تلتف علـــى الأشجار النافعة فتقتلها [١] فيبالغون في اجتثاثها مخافة أن تؤذي غيرها .

ثم يؤكد النظم القرآني هذا المعنى بالوصف الثالث : " **ما لَها مِنْ قَرارٍ** " ، وتأمل هذا الترابط بين الوصفين ؛ فالاجتثاث أو القطع بسبب عدم الاستقرار .

ووجـــه تشبيه كلمة الكفـــر بالشجرة الخبيثة التي ليـــس لها قـــرار أن " الكفر متناقض متضاد ، ليس له أصل صحيح ، ولا برهان موجب ، ولا دليل كاشف ، ولا علة مقتضية ، إنما هو شبه وأباطيل وضلال ، تقتضى وساوس وتسويلات ما لها من قرار، لأنها حاصلة من شبه واهية وأصول فاسدة " [٢] .

" واعلـــم أن المثال في صفة الكلمة الخبيثة فـــي غاية الكمال ؛ وذلك لأنَّه – تعالى – بين كونها موصوفة بالمضار الكثيرة ، وخالية عن كل المنافع : أما كونها موصوفة بالمضار فإليه الإشـــارة بقولـــه : " **خَبِيثَةٍ** " ، وأمـــا كونهـــا خالية عـــن كـــل المنافع فإليه الإشارة بقوله : " **اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ** " [٣] .

وانظر إلى هذا الترابط العجيب بين الصورتين التشبيهيتين والمجاز المرسل لعلاقة الجزئية فـــي قوله – تعالى – : " **كلمة** " ؛ ســـواء أكانت الكلمة طيبة أم خبيثة ، فهي في كلٍ اختصار لكلام طويل . وأوثر التعبير بالمجاز المرسل – هنا – لسببين :

---

(١) انظر التحرير والتنوير ٢٢٥/١٣ .

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٢٤٩/٢ .

(٣) مفاتيح الغيب ٩٣/١٩ .

الأول : لبيان خطورة الكلمة نفعاً وضراً ؛ فأصل الخير كلمة ، وأصل الشر كلمة ، وكبير النار من مستصغر الشرر .

الثاني : للتناسب بينها وبين " **شجرة** " في الإفراد ، وفي تأدية المعنى ؛ فالنفع كله والضرر كله يبدأ بكلمة واحدة ، وشجرة واحدة .

وتأمل روعة المقابلة في النظم الكريم : فالكلمة الطيبة تقابلها الكلمة الخبيثة ، والشجرة الطيبة تقابلها الشجرة الخبيثة ، وثبات الأصل مع امتداد الفروع – في الشجرة الطيبة – يقابله الاجتثاث ، وعدم الاستقرار في الشجرة الخبيثة ؛ وبذلك يتأكد المعنى ، ويظهر الفارق بين حال من يجعل من الكلام الطيب منهجاً ، ومن يستهويه الكلام الخبيث ، فذاك يبني وهذا يهدم . وذاك يُصلح وهذا يُفسد ، وشتان ما بين الحالين !!

والنظم القرآني – كما ترى – من خلال هاتين الصورتين يضع الأسس القوية لبناء المجتمع المثالي ، ويرشد الناس إلى دعائم هذا البناء ؛ حتى يسود الود ، وتقوى الروابط ، وتنعدم الفرقة .

٢- ومن ذلك قول الله – تعالى – : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** " [١] :

لما كانت سورة (الحجرات) تؤسس لمبادئ الدين السمحة ، وترشد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وتضع أسس التعامل مع الله – تعالى – ومع رسوله – صلى الله عليه وسلم – ومع سائر البشر

(١) الحجرات /١٢ .

: المؤمن منهم والفاسق ؛ تكرر فيها النداء بـ " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** " خمس مرات [1] مع كل مبدأ ، وكأنها تبدأ كلاماً جديداً ، وتؤصل منهجاً مستقلاً بذاته ؛ يستحق أن ينتبه إليه المؤمنون ، ويترقبوا ما جاء فيه من تشريع .

وقد تكفَّل القرآن الكريم – في بعض توجيهاته – بحفظ أعراض المسلمين ، وعدم تتبع عوراتهم ، أو البحث عن أسرارهم ، والوقوف على عيوبهم . وجاء ذلك من خلال تحذيرات مصورة تخاطب الحس البشري ، وتلامس فؤاده ، وكان للتصوير البياني الدور الكبير والأثر الفعَّال في تلك التوجيهات ، ومنه هذا المشهد الذي معنا ، والذي برز من خلال التصوير الاستعاري في قوله – تعالى – : " **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** " .

وقد هيأ النظم القرآني لهذا التصوير بعدة توجيهات عبر عنها بأقوى الأساليب : فبدأ بأسلوب النداء " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** " تلطفاً وتكريماً للمؤمنين استعداداً لتلقي التكليف من الله – تعالى – بأمر من

---

(١) وهي كالتالي :

١- قوله – تعالى – : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** " الحجرات / ١ .

٢- وقوله – تعالى – : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** " الحجرات / ٢ .

٣- وقوله – تعالى – : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** " الحجرات / ٦ .

٤- وقوله – تعالى – : " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** " الحجرات / ١١ .

٥- والآية التي معنا .

الأمور المهمة . وهذا الأمر غالب في معظم التكاليف الشرعية في القرآن الكريم . وفي اختيار أداة نداء البعيد (**يـــا**) دلالة علـــى بعد منزلة المؤمنين عند الله – تعالى – وتمكنهم مـــن هـــذا الوصف " **آمَنُوا** " الموذن بقبول ما يأتي من تكاليف . والهاء للتنبيه وجاءت بين الصفة والموصوف لمعاضدة حرف النداء وتأكيد معناه .

والنداء بـــ " **يَا أَيُّهَا** " كثر في القرآن الكريم [١] مالم يكثر في غيره ؛ لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وأسباب المبالغة هي : تكرار الذكر ، والإيضاح بعد الإبهام ، واختيار لفظ البعيد ، وتأكيد معناه بحرف التنبيه [٢] .

ولما هيأ النظم القرآني المؤمنين ، وضمن إصغاءهم وجه إليهم جملة من الأوامر والنواهي . " والنداء حين يقع بين يدي الأمر ، والنهي إنما يكون لأمر يهتم به المتكلم ، ويحرص عليه ؛ فيوقظ المخاطب ، ويُهيأه له قبل أن يلقيه عليه " [٣] .

والأمر الأول : " اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ " وهو للوجوب ؛ وفيه تحذير للمؤمنين من الوقوع في مثل هذه الظنون السيئة . وجاء فعل الأمر بصيغة الافتعال " **اجْتَنِبُوا** " لحث النفس على المجاهدة ، والتحري الدقيق للظنون : الفاسد منها ، والحسن .

وجاء المأمور باجتنابه " **كَثِيرًا** " منكراً لإفادة البعضية ؛ إذ يجوز لهم أن يظنوا في بعضهم خيراً كما جاء ذلك في قوله – تعالى – :

---

(١) راجع : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة الأولى – ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ دار الحديث – القاهرة – من ص ١٣٥ إلى ص ١٤٨ .

(٢) انظر : حاشية السيد الشريف على الكشاف – ط – الدار العالمية – ج١ص٢٢٦ .

(٣) التصوير البياني للعلامة الدكتور / محمد أبو موسى – الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠ م – الناشر : دار الثقافة القاهرة – مكتبة وهبة – ص ٤ .

" **لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ** " (١) ، ولوعُرِّف لكان الأمر باجتناب الظن منوطاً بما يكثر منه دون ما يقل ، ووجب أن يكـــون كل ظن متصف بالكثرة مجتنباً ، وما اتصف منه بالقلة مرخصاً فـــي تظننه (٢) .

ومناط الأمر أن لا يُقبل الإنسان على هذا الظن إلا بعد تحقق وتثبت ، وتمييز بين ماهو خير ، وما هو سيئ .

وحذف متعلق الظن للدلالة على أن كل ظن فيه إثم إنما هو من الظن المنهي عنه . ولأن هذه الجملة تثير في النفس سؤالاً مفاده : لماذا نجتنب كثيراً من الظن ؟ وهذا السؤال يحتاج جواباً جاءت جملة : " **إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ** " للإجابة عن هذا السؤال ؛ لذا فصل بين الجملتين لشبه كمال الاتصال . وهو من الأساليب المشوقة في القرآن الكريم .

ومن باب التنويع في أساليب الخطاب لضمان التأثير على السامع يُتبع النظم القرآني الأمـــر باجتناب الظن بالنهي عـــن التجسس فـــي قوله – : " **وَلَا تَجَسَّسُوا** " :

والعلاقة بينهما وثيقة الصلة ؛ لأن هذا التجسس ناتج عن الظن السيئ ، وفيه حث على عدم تتبع عورات المسلمين لمجرد الظن بهم ظناً سيئاً ؛ لأن هذا التجسس قد يودي بهم إلـــى المهالك . وللفخر الرازي لفتة جميلة في هذا النهي حيث يقول : " ثـــم قال – تعالـــى – : " **وَلَا تَجَسَّسُوا** " إتمامًا لما سبق لأنه – تعالى – لما قـــال : اجتنبوا كثيراً من الظن فُهم منه أن المعتبر اليقين فيقول القائل : أنا أكشف فلانًا يعني أعلمه يقينًا ، وأطلع علـــى عيبه مشاهدة ، فأعيب فأكون قد اجتنبت

(١) النور / ١٢ .

(٢) انظر : جامع البيان للطبري ٣٠٤/٢٢ ، والكشاف ٣٧١/٤ .

الظن فقال – تعالـــى – : ولا تتبعوا الظن ، ولا تجتهدوا في طلب اليقين في معايب الناس " (١) .

ولما كان هذا التجسس يُفضي إلى الخوض في أعراض المسلمين أتبع النهي عنه بالنهي عن الغيبة في قوله – تعالى – : " **وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** " ، ففيه تحذير شديد من التحدث عن المسلمين بما يعيبهم ، ويتناول أعراضهم في غيبتهم .

وإنمـــا قال – سبحانه – : " **وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** " ، ولـــم يقل : اجتنبوا الغيبة كما قال : " **اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ** " لقصد التوطئة للتمثيل الوارد في قوله : " **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً** " لأنـــه لما كان ذلك التمثيل مشتملاً علـــى جانب فاعـــل الاغتياب ومفعوله مهد له بما يدل على ذاتين لأن ذلك يزيد التمثيل وضوحًا " (٢) .

وتأمل هذا الترابط العجيب ، والترتيب الدقيق بين الأمـــر والنهيين بعـــده ؛ فقد بـــدأ بالأمـــر – **أولاً** – باجتِناب الطريق التي لا تؤدي إلى العلم ، وهو الظن فقال : " **اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ** " أي لا تقولوا فـــي حـــق المؤمنين مالـــم تعلموه فيهم بناء علـــى الظن ، ثـــم عقب بالنهـــي – **ثانياً** – عن طلب تحقق ذلك الظن فقال : " **وَلَا تَجَسَّسُوا** " أي إذا سُئلتم عن المظنونات فلا تقولوا : نحن نكشف أمـــورهم لنستيقنها قبل ذكرهـــا ، ثـــم جـــاء النهي – **ثالثاً** – عن ذكر ذلك إذا علم فقال : " **وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا** " أي إن علمتم منها شيئًا مـــن غير تجسس ، فلا تقولـــوه ولا تفشوه عنهم ولا تعيبوا . ففي

(١) مفايح الغيب ١١٠/٢٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٥٤/٢٦ .

الأول نهى عما لم يُعلم ، ثم نهي عن طلب ذلك العلم ، ثـم نهي عن ذكر ما علم [1] .

وتعد هذه الأساليب – بما اشتملت عليه من أمر ونهي – بمثابة التقديم والتمهيد للصورة الأساسية التي عليها مدار النص في قوله : – تعالى – " **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ** " : وهنا تكمن الروعة التعبيرية ، ويتجلى الإعجاز التصويري بكل معانيه ؛ فقد رسم القرآن الكريم صورة لمن يغتاب الناس هي من أقبح الصور التي تعافها النفوس ، وتنفر منها الطباع .

وجاء هذا التصوير بطريق الاستعارة التمثيلية ؛ حيث صور حال من يغتاب الناس، ويخوض في أعراضهم بحال من يأكل لحم أخيه ميتاً.

والصورة – كما ترى – تخاطب الحس البشري ، وتواجهه بما لا يستقيم مع فطرته السليمة التي فطره الله عليها ؛ فلا يجد أمامه إلا أن يقر مذعناً بما جاء في هذه الصورة ، دون تردد ، أو مراوغة ، أو تفكير ، وهكذا يتعامل القرآن الكريم مع مخاطبيه عندما يريـد ترغيبهم ، أو ترهيبهم ، أو تنفيرهم .

وتكمن روعة هذه الصورة ، ويتجلى إعجازها في طريقة صياغتها ، وفي تدرجها مع الحس البشري ، وفيما تضمنت من مبالغات شتى :

فبدأت بالاستفهام التقريري " **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ** " ؛ لأن ذلك الفعل من الأمور التي لا يمكن للإنسان أن يتردد في الإقرار بأنه لا يحبها .

(١) انظر : مفاتيح الغيب ١١١/٢٨ ، والبحر المحيط ٥٢١/٩ .

" وإنما لم يرد الاستفهام على نفي محبة ذلك بأن يُقال : ألا يحب أحدكـــم – كما هو غالب الاستفهام التقريري – إشارة إلى تحقق الإقرار المُقَرَّر عليه ، بحيث يترك للمقرَّر مجالاً لعدم الإقرار ، ومع ذلك لا يسعه إلا الإقرار "(١) .

وصدر الصورة بلفظ المحبة دون الإرادة نظراً لما جُبلت عليه النفوس ، ومالت إليه الأهواء من الإسراع إلى الغيبة ، والإصغاء إلى من يتحدث بها ، مع ما فيها من الحظر ووعيد الشرع ، ولفظ الإرادة – وإن كان يعطي هذا المعنى – إلا أنه لا يتمكن فى الأفئدة تمكن المحبة منها (٢) .

وعلق المحبة بما هو غاية في الكراهة للإشعار بتفظيع حالة ما شُبه به ، وحالة ما ارتضاه لنفسه ؛ فلذلك قال : " **أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ** " ، ولم يقل : أيتحمل أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً (٣) .

وذهب المفسرون إلى أن إسناد الفعل إلى أحدكم للإشعار بأن أحداً من الأحدين لا يحب ذلك (٤) . وأرى أن هذا من باب التقليل ممن يحب هذا الفعل القبيح ؛ لأنه يخالف طبيعة البشر ، وأن المستقر في طباعهم وطبائعهم كراهية مثل هذا الفعل ، فإن فُرض وأحبه أحد فهو منفرد ، وشاذ عن تلك الطبيعة .

وصور الغيبة بأكل لحم الإنسان ؛ للإشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ودمه ، وهذا من باب القياس الظاهر ؛ لأن عرض المرء أشرف

---

(١) التحرير والتنوير ٢٥٥/٢٦ .

(٢) انظر : الطراز للعلوي ٢٠٣/١.

(٣) انظر : الكشاف ٣٧٣/٤ . وإرشاد العقل السليم لأبي السعود ١٢٢/٨ . والتحرير والتنوير ٢٥٥/٢٦ .

(٤) انظر : الكشاف ٣٧٣/٤ . وإرشاد العقل السليم ١٢٢/٨ . والتحرير والتنوير ٢٥٦/٢٦ .

من لحمه ، فإذا لم يحسن من العاقل أكل لحوم الناس لم يحسن منه قرض عرضهم بالطريق الأولى ؛ لأن ذلك آلم [١] .

ومن باب التدرج والترقي في زيادة التفظيع لم يقتصر النظم القرآني على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، بل جعل هذا الإنسان أخاً ، ولم يقتصر على كونه أخاً ، بل جعله ميتاً ؛ وهذا مما يُعد غاية في القبح والبشاعة ؛ لأن الإنسان إذا اضطر إلى أكل لحم الميتة – خشية الهلاك – فلا تكون هذه الميتة لإنسان ، فضلاً عن أن يكون هذا الإنسان أخاه ، فهذا مما لا تقبله فطرته ، ولو أدى به ذلك إلى الموت .

وآثر النظم القرآني التعبير بـ " **مَيْتًا** " لأمرين :

الأول : لأن الميت لا يُحس ، ولا يستطيع الدفع لعدم شعوره ، وكذلك الغائب لا يسمع ما يقول فيه المغتاب ، ولا يشعر بما وقع فيه من النقص .

الثاني : لأن أكل اللحم إذا كان هزيلاً ربما يُستكره ويُستخبث فى النفوس ، فكيف به إذا كان ميتة ؛ يكون لا محالة أدخل فى التقذير ، وأعظم فى الاستخباث [٢] .

ولما استدرجهم النظم القرآني – من خلال مخاطبة حواسهم بهذه الصورة المنفرة – وضمن إقرارهم بعدم حب ما جاء فيها من أكل لحم الأخ ، فضلاً عن كونه ميتاً ؛ ختم ذلك بتلك الحقيقة المحتومة التي تتلاءم مع الفطرة الإنسانية ، والطبيعة البشرية " **فَكَرِهْتُمُوهُ** " . والمعنى – كما يقول الزمخشري – : " فقد كرهتموه واستقر ذلك . وفيه

(١) انظر : مفاتيح الغيب ١١٠/٢٨ .

(٢) انظر : البحر المحيط ٥٢٠/٩ ، والطراز للعلوي ٢٠٣/١ .

معنى الشرط ، أى : إن صح هذا فكرهتموه ، وهي الفاء الفصيحة " [١] . وانظر إلى هذا الترابط العجيب بين المتضادات ، والـــذي يفضي إلى إبراز المعنى المقصود : "

أيحب أحدكم ..... فكرهتموه " ، فلكون النفوس تميل إلى الغيبة ، وتستلذ بها بدأ بذكر المحبة ، ولكون هذه الغيبة بمنزلة أكل لحم الأخ ميتاً ختم بالكره .

ومما تجـــدر الإشـــارة إليه أن العلوي جعـــل هـــذه الآية مـــن باب الكنايـــة ، فقـــال : " فهذه الآية قد اشتملت على نكت سبع ، كلها دالة على حسن المطابقة لمقصد الكناية التى وقعت من أجله " [٢] وتبعه بعض علماء البلاغة في ذلك ؛ يقول الدكتور الشحات أبو ستيت : " ففي هذا الجزء من الآية الكريمة كناية تمثيلية ، إذ نهى الله – تعالى – أولاً – عن الغيبة ، ثم كنَّى عن المغتاب بمن أكل لحـــم أخيـــه ميتاً ، وهـــذا تمثيل لعمـــله الشائن بصورة بشعـــة منفـــرة لا تقبلها النفوس بأي وجـــه مـــن الوجـــوه " [٣] . وما أميل إليه – كما ذكرت في تحليل الآية سابقاً – أن الآية الكريمة تمثل هيئة بهيئة ؛ مما يجعلها أمكن في باب الاستعارة التمثيلية .

وبعد هذا التصوير الرائـــع الذي يسيطر على جوانب النفس البشرية ، ويسد أمامها منافذ الشك ، والانزلاق في دركات الغي ، وغياهب الشبهات ، يصل النظم القرآني إلـــى نهاية المطاف بتوجيه المؤمنين إلى التحصن بما ينجيهم من مثل هذه الآفات ، وذلك من خلال

---

(١) الكشاف ٣٧٣/٤ .

(٢) الطراز للعلوي ٢٠٢/١ . وانظر هذه النكت في طرازه – ج١ من ص ٢٠٢ إلى ص ٢٠٤ .

(٣) أفنان البيان د/ الشحات أبو ستيت / ٢٤٦ .

الأمر : " **وَاتَّقُوا اللَّهَ** " : ويعد هـذا الأمـر الحلقة الأهـم فـي سلسة الأوامـر والنواهـي التـي سبقته : " **اجتنبوا .... ولا تجسسوا ..... ولا يغتب ..... واتقوا** " ؛ لأن المؤمن إذا تحصن بالتقوى ؛ واتخذها درعاً فلا مجال لـه في الوقوع فـي مثل هذه الشبهات . فإن قُدِّر ووقـع فيها فالتقـوى ترده إلـى الطريـق الصحيح رداً جميـلاً ؛ لـذا عقب بهذا التذييل القوي : " **إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيـمٌ** " : والمناسبـة – كمـا ترى – قويـة وواضحة ؛ لأن من يتقي الله ، ويعود عن إثمه فإن الله – تعالى – يقبل توبته ، ويمحو ذنوبه مهما كانت ؛ وفي ذلك تطمين للمؤمنين ، ودعوة إلى المسارعة بالتوبة بعد الوقوع في الإثم .

وتتمثل قوة هذا التذييل في جمعه بين أسلوب التأكيد بـ " **إِنَّ** " ، وصيغتي المبالغة " **تَوَّابٌ رَحِيمٌ** " ؛ مما يتناسب مع عظم الذنب ، وكثرة المذنبين ، فمهما عظم ذنب المؤمن ، ومهما كثر المذنبون فالله – تعالى – سريع في توبته ، واسع في رحمته .

المبحث الخامس

وصف مواقف الشدة

١- قال – تعالى –: " **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** " (١) :

قد يتعرض الإنسان في حياته إلى بعض المواقف الصعبة التي تؤثر على نفسه ، وتشعره بالقلق ، والضيق ، وكلما كانت هذه المواقف شديدة وعصيبة كلما اشتد ضيق الإنسان واضطربت حالته ، وتزعزعت نفسه التي بين جنبيه ، وما أصعب هذه المواقف إذا كانت في الحروب !! .

والنظم القرآني – بدوره – اقترب من الإنسان في مثل هذه المواقف ، فتابعه ورصد حاله عن قرب ، ثم صاغ هذه الحال في صور دقيقة ومعبرة ، تعكس مكنون نفسه الثائرة ، ومنها هذه الصورة التي معنا ، والتي تنقل لنا هذا الموقف العصيب الذي وقع فيه المسلمون في غزوة حنين عندما اغتروا بعددهم الكثير ، وقالوا كلمتهم المشهورة " لن نُغلب اليوم من قلة " (٢) ، وكادوا أن ينسوا أن النصر من عند الله ؛ فما كان إلا أن وقعوا في الهزيمة بعد هذا الغرور ووصلوا إلى حال يُرثى لها ، لولا فضل الله عليهم بأن نجاهم وثبتهم . وسياق الآية الكريمة يتلاءم مع السياق العام لسورة التوبة ، المليئ بالنفير للقتال والغزوات ، والنصر والهزيمة .

---

(١) التوبة / ٢٥ .

(٢) انظر : جامع البيان للطبري ١١ / ٣٨٩ .

ومن فضل الله على المؤمنين أنه لا يتركهم في حال الشدة ، فبعد العسر يأتي اليسر ، وبعد الضيق يأتي الفرج . لذا بدأ النظم القرآني هنا بزف البشرى بالنصر قبل تصوير موقف الشدة الذي وقع فيه المؤمنون ، وأكد ذلك بقوله – تعالى – : " **لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ** " وذلك باستخدام اللام الواقعة في جواب القسم المقدر ، وحرف التحقيق " **قد** " ، والفعل الماضي " **نصركم** " ، وكلها تفيد تحقق وقوع النصر . ولاغترار المؤمنين بأنفسهم ونسيانهم – في لحظة ما – أن النصر من عند الله نُزلوا منزلة من ينكر الخبر ؛ فأكد لهم الكلام بأكثر من مؤكد كما يفعل ذلك مع المنكر .

وفي إسناد النصر إلى الاسم الظاهر " **الله** " دلالة قطعية على أن النصر لا يكون إلا من عند الله مهما كان العدد ، ومهما كانت القوة ، فقد خرج المسلمون – في هذه الغزوة – في اثني عشر ألف مقاتل [1] ، ولأول مرة في تاريخ المسلمين يخرجون بمثل هذا العدد ، ومع ذلك لما اعتمدوا على كثرتهم ، وقوتهم مُنوا بالهزيمة – أول أمرهم – إلى أن تداركهم الله برحمته وفضله .

وذكر – سبحانه – " **يَوْمَ حُنَيْنٍ** " مع أنه ضمن هذه المواطن " للإيماء إلى ما وقع فيه من قلة الثباتِ من أول الأمر " [2] .

وأسند – سبحانه – إعجابهم إلى كثرتهم للتنبيه على خطئهم في الأدب مع الله المناسب لمقامهم ، ولبيان أن خطورة الغفلة عن

---

(١) انظر : البدء والتاريخ – للمطهر بن طاهر المقدسي – الناشر: مكتبة الثقافة الدينية – بور سعيد – ج٤ ص٢٣٦ . والكامل في التاريخ – لابن الأثير – تحقيق : عمر عبد السلام تدمري – الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى : ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م – ج٢/ص ١٣٤ .

(٢) إرشاد العقل السليم ٥٥/٤ .

الأسباب الحقيقية للنصـــر، ووجـــود المخالفات في صفوف المجاهدين ينعكس أثره على الجميع ؛ والمعنى : ما كان ينبغي لكم أن تعتمدوا على كثرتكم (١) . ولتأكيد هذه المعانى عقب بأسلوب النفي " **فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا** " فالهزيمة – في أول الأمر – وقعت بسبب بعدهم عن الأخذ بأسباب النصر ؛ وهي الاعتماد على الله – تعالى – وعدم الاغترار بالكثرة .

ثـــم تأتـــي الصـــورة المعبرة – والتـــي عليها مـــدار النص – وذلك فـــي قولـــه – تعالـــى – : " **وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ** " لتحكي لنا ذلك الواقع الأليم الذي عاشه المؤمنون عندما تخلوا عن الأخذ بأسباب النصر ، ففي هذا الأسلوب كناية معبرة عن مدى ضيقهم ، وشدة كربهم ، وعظيم رعبهم .

والصورة – كما تـــرى – غاية فـــي الإعجاز ، وقمة فـــي التصوير ؛ فقد بلـــغ الحال بالمؤمنين مـــداه ، لدرجـــة أنهم أحسوا أن الأرض – بسعتها ، ورحابتها – ضاقت عليهم ، حتـــى كادت أن تخنقهم ، فلم يجدوا لأنفسهم ملجأ يهربون إليه ، ولا منفذاً يفـــرون منه . وهذا أصدق تعبير عن سوء الحال التي يصل إليها الخائف المضطرب .

" وهذه الصورة النفسية المعبرة عن الاختناق النفسي الشديد، جاءت موازية لشعور الإعجاب في بداية المعركة ، حتى يغسل الشعور

(١) انظر : التحرير والتنوير ١٠/١٥٥ ومـــا بعدها ، ومباحث فـــي إعجاز القرآن – د مصطفى مسلم – الناشر: دار القلم – دمشق – الطبعة الثالثة – ١٤٢٦ هـــ – ٢٠٠٥ م – ص٢٧٥ .

بالاختناق ، الشعور بالإعجاب ، ويزيله من ساحة النفس ، لتعود لصفائها وتجردها لله " [١] .

ويرى البعض أن هذا الأسلوب من قبيل الاستعارة ؛ فصور حالهم لا يجدون مكاناً ، أو مفراً تطمئن إليه أنفسهم من شدة الرعب بحال من لا يسعه مكانه . أو هي تمثيل لحال من لا يستطيع الخلاص من شدة بسبب اختلال قوة تفكيره ، بحال من هو في مكان ضيق من الأرض يريد أن يخرج منه فلا يستطيع تجاوزه ولا الانتقال منه [٢] .

وعلى كل فالصورة موحية ومعبرة ، وتدل أصدق دلالة على هذا الجو النفسي المشحون بعوامل الرهبة ، وكوامن الخوف ؛ وهما بدورهما يجعلان الإنسان يشعر بضيق في صدره وكأن المكان المتواجد فيه لا يسعه .

وأداة العطف " **ثم** " تطوي أحداثاً كثيرة ومثيرة ، والتراخي الموجود فيها يدل على أن المؤمنين ظلوا يعانون هذا الضيق النفسي فترة من الزمن ليست بالقليلة ؛ مما جعلهم يصلون إلى هذه الحال .

ولأن الموقف شديد وعصيب عقب بقوله – تعالى – : " **وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ** " ؛ للدلالة على سرعة الفرار ، والانهزام من شدة الخوف [٣] .

والنظم القرآني – بأسلوبه المعجز في هذه الآية الكريمة – يرشد المؤمنين إلى البعد عن الاغترار بالنفس ، ويوجه أنظارهم إلى

---

(١) وظيفة الصورة الفنية في القرآن – عبد السلام أحمد الراغب – الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب – الطبعة الأولى : ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م – ص٢٤٩ .

(٢) انظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٣/ ٧٦ ، وإرشاد العقل السليم ٥٥/٤ ، ورح المعاني ٢٦٨/٥ ، والتحرير والتنوير ١٥٧/١٠ .

(٣) انظر : المفردات للراغب / ٨٨٧ . ولسان العرب مادة (ولي) .

مدى عنايته بهم ، وقربه منهم في أشد الأزمات ، وإلى ضرورة التوكل على الله – تعالى – والأخذ بالأسباب .

٢- قال – تعالى –: " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** " (١) :

يصور لنا النظم القرآني – في هذه الآيات الكريمة – موقفاً آخر من مواقف الشدة والكرب التي وقع فيها المؤمنون في غزوة الأحزاب ؛ فقد اجتمع كل أعداء الإسلام من المشركين ، واليهود بكل طوائفهم من كل مكان ، وحاصروا المدينة ؛ عازمين – من وجهة نظرهم – على القضاء على الدين الإسلامي ، واقتلاع شجرته الوارفة ، إضافة إلى العدو الداخلي الممثل في المنافقين الذين حاولوا – بكل طاقاتهم – زعزعة المؤمنين ، وتثبيط هممهم .

وبداية هذا الموقف العصيب بأسلوب النداء " **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** " من باب التلطف والتكريم للمؤمنين استعداداً لتلقي أمراً من الله – تعالى – له علاقة بما وقعوا فيه من كرب . وفي اختيار أداة نداء البعيد (يا) تكريم للمؤمنين ، ودلالة على علو قدرهم ، وبعد منزلتهم ، وسمو نفوسهم ، وتمكنهم من الوصف " **آمَنُوا** " الموذن بقبول ما يأتي من أوامر . والهاء للتنبيه وجاءت بين الصفة والموصوف لمعاضدة حرف النداء وتأكيد معناه .

(١) الأحزاب / ٩-١٠-١١ .

ولما تهيأ المؤمنون ، وانتبهوا لما سيلقى عليهم وجه إليهم النظم القرآني الأمر بذكر أعظم نعمة قد منَّ الله عليهم بها في هذا الموقف ، وهي نعمة التثبيت والنصر بإرسال العون والمدد من عنده ، فقال – تعالى – : " **اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا** " .

وبعد هذه التهيئة الحانية يبدأ النظم القرآني في رسم الصورة الكلية لهذه المعركة المروعة ، ووصف شدتها – الأمر الذي أوصل المؤمنين إلى أعلى درجات الرهبة والخوف – وذلك باختيار جزئيات تساعد على تضخيم الموقف وتهويله ، ومنها لفظ " **جُنُودٌ** " بصيغة الجمع والتنكير ؛ فدل الجمع على كثرتهم ، واجتماعهم من كل مكان ، وكأن كل قبيلة من قبائل الشرك قد أرسلت جيشاً خاصاً بها ، إضافة إلى جيش المنافقين المنتشر بين جماعة المؤمنين ، فبدأ العداء من داخل الصفوف قبل خارجها ، كما دل التنكير على التضخيم والتهويل من الموقف .

وفي لمحة معبرة ومشوقة يتوقف النظم القرآني بالصورة قليلاً عند هذا المشهد ليزف البشرى للمؤمنين بالنصر ، والتثبيت ، فعقَّب مجيئ جنود الكفر بإرساله – عز وجل – جنود النصر والتثبيت : " **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا** " ، ولأن في هذا الإرسال قدرة وعظمة أُسند الفعل إلى ضمير العظمة " **نا** " ، وعبر بأداة الاستعلاء " **على** " للدلالة على أن التثبيت نازل من السماء لإهلاك هؤلاء المشركين . واختار الريح دون الرياح للدلالة على أنها ريح ضارة ، وهو ما يدل عليه استعمال الكلمة في القرآن الكريم ، ونكرها للتهويل من شأنها .

وجاءت " **جُنُودًا** " مجموعة ومنكرة للكثرة ، وتعظيم دور الملآئكة في هذه الغزوة .

وبعد هذا الإجمال الذي امتزجت فيه وقائع المعركة بعلامات النصر يأتي التفصيل للأحداث وشدتها : والبداية : " **إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ** " ، وهي بداية مزلزلة ومرعبة ، قد اجتمعت فيها كل مقومات الخوف والرهبة ؛ فالمدينة محاصرة من كل مكان ، فلا مفر ولا مهرب . وتأمل التعبير بالفوقية والأسفل للدلالة على أنهم حاصروهم من أعلى المدينة ومن أسفلها ، أو يكون ذلك من باب المبالغة ، أو الكناية عن الإحاطة ؛ أي جاءوكم محيطين بكم من جميع الجهات [١] . وأرى أنه اختار هاتين الجهتين بالذات دون اليمين والشمال ؛ لما فيهما من الصعوبة في مراقبة تحركات العدو ، واتقاء هجماته ؛ وعلى كل فهذا أدعى للخوف ، وأمعن في الرهبة .

وكانت هذه المقدمة سبباً في أن بلغ بهم الحال مداه وهذا ما دل عليه التصوير الكنائي الثنائي في قوله – تعالى – : " **وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** " . وزاغت الأبصار أي زاغت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها ، أو شخصت عن مواضعها ، أو مالت عن سننها ومستوى نظرها [٢] . وفي التعبير كناية عن الحيرة من شدة الخوف والفزع ؛ فالإنسان عندما يبلغ به الخوف مداه – من أثر شدة وقع فيها ، أو خطر أحدق به – تدور عيناه يميناً ويساراً ؛ وكأنه يبحث لنفسه عن منفذ يهرب منه ، أو عن أحد ينقذه مما هو فيه .

---

(١) انظر : البحر المحيط ٤٥٨/٨ ، وروح المعاني ١٥٤/١١ .

(٢) انظر : معاني القرآن للفراء ٣٣٦/٢ ، ومعاني القرآن للنحاس ٣٢٥/٥ ، والكشاف ٥٢٦/٣ .

ثم يرتقي النظم القرآني بتصوير تلك الحال التي وقع فيها المسلمون إلى أعلى درجات التصوير ، وذلك في قوله – تعالى – : " **وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ** " ففي التصوير كناية عن غاية الشدة والاضطراب والضيق ؛ لدرجة أن القلوب تكاد تنخلع من مكانها ، وتصل إلى الحلوق خوفاً ورعباً ، ولولا ضيق الحلوق لخرجت منها .

وقد يراد المعنى الحقيقي فالرئة إذا انتفخت من شدة الفزع أو الغضب أو الغم الشديد ربت ، وارتفع القلب بارتفاعها إلى رأس الحنجرة . ويجوز أن يكون ذلك مثلاً في اضطراب القلوب ووجيبها وإن لم تبلغ الحناجر حقيقة [١] .

وتأمل اختيار الأبصار والقلوب وما في ذلك من الدلالة على أنهما أهم أدوات الخوف عند الإنسان ؛ فالعين تترجم المواقف إلى صور ترسلها للقلب عن طريق المخ ؛ والقلب هو أداة الوجدان ، ومركز الإحساس والشعور ، وبقية الأعضاء تكون كالمتوقفة تماماً في مثل هذه المواقف .

" فالصورة هنا لا تترك جانبا من جوانب تأثير الموقف في النفوس إلا وشخّصته وأظهرته للعيان ، فاجتمعت الصورة البصرية ، والصورة الذهنية ، والصورة النفسية ؛ للدلالة على موقف الكرب الشديد والضيق الخانق " [٢] .

ووسط هذا الضيق النفسي الرهيب ، والشدة الخانقة ، واليأس القاتل الذي استولى على النفوس ؛ تتشتت الأفكار وتختلف الظنون

---

(١) انظر : الكشاف ٥٢٦/٣ ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل ٢٢٦/٤ ، والبحر المحيط ٤٥٨/٨ ، وإرشاد العقل السليم ٩٣/٧ ، وروح المعاني ١٥٤/١١ ، والتحرير والتنوير ٢٨٠/٢١ .

(٢) وظيفة الصورة الفنية عبد السلام أحمد الراغب /٢٤٦ .

عن عواقب الأمور ؛ لذا عقب النظم القرآني بقوله : " **وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا** "، **و**" الألف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاستغراق مبالغة يعني تظنون كل ظن لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئاً ، ويمكن أن يكون المراد ظنونهم المعهودة لأن المعهود من المؤمن ظن الخير بالله " [١] . وجمع الظنون للدلالة على تعدد أنواعها ؛ لأن منهم من ظن خيراً لثقته في وعد الله – تعالى – بالنصر ، ومنهم من ظن غير ذلك خطأ منه . ولو قال – سبحانه – : " **تظنون ظناً** " لجاز أن يكونوا مصيبين في ظنهم [٢] .

وقال – سبحانه – : " **تَظُنُّونَ** " بصيغة المضارع ، ولم يقل : " **ظننتم** " بصيغة الماضي لأمرين :

الأول : استحضار صورة المؤمنين وما وقعوا فيه من حيرة قاتلة .

الثاني : الدلالة على تجدد تلك الظنون بتجدد أسبابها ، وفي ذلك – كما يقول صاحب التحرير والتنوير – كناية عن طول مدة هذا البلاء . كما لحظ في صيغة المضارع معنى التعجب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان ، فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار ، وجعل القلوب تبلغ الحناجر، دل على أنهم أشفقوا من أن يهزموا لما رأوا من قوة الأحزاب ، وضيق الحصار ، أو خافوا طول مدة الحرب وفناء الأنفس ، أو أشفقوا من أن تكون من الهزيمة جراءة للمشركين على المسلمين ، أو نحو ذلك من أنواع الظنون وتفاوت درجات أهلها [٣] .

---

(١) مفاتيح الغيب ١٧٢/٢٥ .

(٢) انظر : مفاتيح الغيب ١٧٢/٢٥ ، وروح المعاني ١٥٤/١١ وما بعدها ، والتحرير ٢١/ ٢٨٢ .

(٣) انظر : التحرير والتنوير ٢١/ ٢٨١ .

ثم انظر إلى هذا التناسق ، والتناغم الصوتي الذي أحدثته الألف في كلمة " **الظُّنُونَا** " ، والذي يأتي غالباً في الآيات التي تصف أحداثا أو شعورًا ، أو أفكارًا من نوع متوهج على اختلاف الدرجة في ذلك ، وهذا ما اقتضاه السياق القرآني في هذه الآية ، فإنها جاءت في موقف عنيف ، كله حركة واضطراب ، وانفعالات موارة زاغت فيها الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر، وكأن الموقف يكاد ينفجر لولا هذا الانطلاق ، وهذا الامتداد في تلك الألف التي أفرغت من توتر الآيات قدرًا استوى به نسق الأسلوب ، ولا يخفى أثر ذلك على النفس !! (١) .

وتتوالى الصور البيانية لنقل الأحداث ، وتصوير المشاهد ؛ ففي قوله – تعالى – : " **هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** " يلخص النظم القرآني الأحداث بتصوير الموقف العام للمسلمين حيال هذه الشدة التي وقعوا فيها . وجاء ذلك من خلال صورتين بيانيتين متآزرتين :

الأولى : في قوله – تعالى – : " **ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ** " ، والابتلاء بمعنى الاختبار، وهو إما كناية عن الشدة التي وقعوا فيها؛ لأن اختبار حال الثبات والصبر لازم لها ، أو هو من باب التمثيل ؛ والمراد عاملهم – سبحانه وتعالى – معاملة المختبر فظهر المخلص من المنافق ، والراسخ من المتزلزل . وسمى الله ما أصاب المؤمنين ابتلاء إشارة إلى أنه لم يزعزع إيمانهم (٢) .

---

(١) انظر : خصائص التراكيب للأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى – الناشر: مكتبة وهبة – الطبعة السابعة – ص ٣٦١ ، والمعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة – المؤلف: أحمد عمر أبو شوفة – الناشر: دار الكتب الوطنية – ليبيا
عام النشر: ٢٠٠٣ – ص ١٥٣ .

(٢) انظر : إرشاد العقل السليم ٩٤/٧ ، وروح المعاني ١٥٥/١١ ، والتحرير والتنوير ٢١/ ٢٨٣ .

والثانية : في قوله – تعالى – : " **وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا** " ، وهي – أيضاً – إما كناية عن الاضطراب الذي أصابهم ، أو يكون قد استعار الزلزال للاضطراب ، وعدم الاستقرار الذي وقعوا فيه ، وكأن حالهم هذه تشبه حال الأرض المضطربة التي لا يستقر عليها شيء .

وتصوير حالهم هذه بالزلزال كان كافياً لنقل ما هم فيه من شدة ، إلا أن النظم القرآني أراد أن يضاعف من هذه الشدة ، وأنها وصلت إلى أقصى درجاتها وذلك بوصف الزلزال بكونه " **شَدِيدًا** " .

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين ، وبعد :

ففي نهاية المطاف لا يفوتني أن أشير إلى أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث ، وهي كالتالي :

أولاً : يُعد التصوير البياني من أهم الوسائل الكاشفة عن إعجاز القرآن الكريم ؛ لما له من قدرة فائقة على تجلية المراد ، وإيضاح الأفكار ، ونقل المعانى في وضوح ، وكأننا نراها بأبصارنا ، ونلمسها بأيدينا .

ثانياً : استطاع التصوير البياني أن يربط بين الأشياء بطريقة توحي بالمعنى المراد ؛ فعندما ربط بين صورة الجبال وصورة السفن في البحر كان يهدف إلى الانتقال من هذا الربط بين الصورتين إلى الهدف الرئيسي وهو الدلالة على القدرة الفائقة على إمساك هذه الكتل الضخمة على صفحة الماء الرقيق . وعندما ربط بين حياة الإنسان وحياة النبات كان يهدف إلى حمل الإنسان على التدبر وعدم الاغترار بالدنيا .

ثالثاً : استطاع التصوير البياني الجمع بين الأمور المتباعدة في الجنس ، والتي لا يخطر بالبال اجتماعها ؛ لخدمة الغرض الأساسي ؛ وهو التأكيد على القدرة الإلهية ؛ فما كان يخطر بالبال اجتماع صورة انفصال الليل عن النهار مع صورة سلخ الشاة .

رابعاً : أبرز التصوير البياني الأمور الذهنية في صور محسوسة من أجل إقناع العقل وإمتاع الوجدان .

خامساً : اعتمد التصوير البياني في كشفه عن الإعجاز القرآني على أسلوب التدرج والترقي مع النفس البشرية لإقناعها تدريجياً ، وهي سمة بارزة للقرآن الكريم في مواجهة خصوم الدعوة بأخطر القضايا .

سادساً : اتسم التصوير القرآني بالدقة المتناهية في اختيار المشبه به المناسب للمشبه ، فراعى الفوارق بين الأشياء ، وحدد الصفات المميزة لكل مشبه به ليلحق به المشبه الذي يريد إبراز صفة معينة فيه ؛ ولا أدل على ذلك من تصوير حال الناس يوم القيام مرة بالفراش ، وأخرى بالجراد .

سابعاً : تسارعت الأحداث المؤثرة ، وتوالت المشاهد العنيفة ، وتنوعت الصور ما بين الدنيا والآخرة لنقل الواقع النفسي الأليم لكل الفئات الإنسانية .

ثامناً : يعد التصوير البياني حلقة من حلقات النظم القرآني التي تلاقت مع غيرها من الأساليب وتآزرت معها ؛ فتأثرت بها وأثرت فيها ؛ ليلتقي الكل على حقيقة واحدة هي الكشف عن الإعجاز القرآني .

فهرس الآيات القرآنية

الآيات	رقم الآيات	السورة	رقم الصفحة
" خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا "	١٩٩	آل عمران	١٠١
" لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا..... "	٢٥	التوبة	١٢٨ – ١٢٩
" واصنع الفلك بأعيننا ووحينا "	٣٧	هود	١٨٢
" مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ ..... "	١٨	إبراهيم	١٨٩
"أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي " السَّماءِ "	٢٤	إبراهيم	١١١ – ١١٢
" تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ "	٢٥	إبراهيم	١١١
" وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ "	٢٦	إبراهيم	١١١ – ١١٥
" إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا "	١٠٧– ١٠٩	الإسراء	١٠١

الآيات	رقم الآيات	السورة	رقم الصفحة
" وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا "	٣٢	الكهف	٨٣
" هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا "	٤٤	الكهف	٨٣
« وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ..... "	٤٥	الكهف	٨٣
" إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ "	٩٠	الأنبياء	١٠١
" قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ "	١ – ٢	المؤمنون	١٠١
" لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ "	١٢	النور	١٢١
" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ..... "	٣٩	النور	٩٢
" أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ..... "	٤٠	النور	٩٢ – ٩٥

الآيات	رقم الآيات	السورة	رقم الصفحة
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا ..... "	٩	الأحزاب	١٣٢
"إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا "	١٠	الأحزاب	١٣٢
" هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا "	١١	الأحزاب	١٣٢
" وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ "	٣٧	يس	٨٦
" وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ "	٤٤ – ٤٥	الشورى	١٠٢
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ "	١	الحجرات	١١٩
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ....."	٢	الحجرات	١١٩
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ..... "	٦	الحجرات	١١٩

الآيات	رقم الآيات	السورة	رقم الصفحة
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ..... "	١١	الحجرات	١١٩
" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ..... "	١٢	الحجرات	١١٨
" فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ "	٦ – ٧	القمـــر	١٠٢
" وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ "	٢٤	الرحمن	٨٠
" وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِـــنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِـــيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَـــمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ "	٦ – ٨	الملك	١٠٧
" فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ "	٤٣ – ٤٥	المعـــارج	١٠٢

الآيات	رقم الآيات	السورة	رقم الصفحة
" قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ "	٨ – ١٢	النازعات	١٠٢
" هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً "	١ – ٤	الغاشية	١٠٢
" الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ "	١ – ٥	القارعة	١٠٣

فهرس المصـــادر والمراجـــع

القرآن الكريم .

١- الإتقان في علوم القرآن – لجلال الدين السيوطي – المحقق : محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – طبعة : ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م .

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم – لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٣- الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق – لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ – الناشر: دار المعارف – الطبعة الثالثة .

٤- إعراب القرآن وبيانه – لمحي الدين درويش – الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية الطبعة الرابعة ، ١٤١٥ هـ .

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل – المؤلف : ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي – المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ .

٦- البحر المحيط في التفسير– لأبي حيان الأندلسي – المحقق : صدقي محمد جميل – الناشر: دار الفكر – بيروت – طبعة : ١٤٢٠ هـ .

٧- البدء والتاريخ – للمطهر بن طاهر المقدسي – الناشر: مكتبة الثقافة الدينية – بور سعيد .

٨- البرهان في علوم القرآن – لبدر الدين الزركشي- المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم – الطبعة الأولى : ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م – الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه .

٩- البلاغة العربية – المؤلف : عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني – الناشر: دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

١٠- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن – لابن أبي الإصبع ، تقديم وتحقيق : الدكتور حفني محمد شرف ، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي .

١١- التحرير والتنوير – لمحمد الطاهر بن عاشور التونسي – الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس – سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

١٢- التصوير البياني للدكتور / محمد أبو موسى – الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠ م – الناشر : دار الثقافة القاهرة – مكتبة وهبة .

١٣- التصوير الفني في القرآن – للشيخ سيد قطب – الناشر: دار الشروق – الطبعة الشرعية السابعة عشرة .

١٤- التصوير القرآني للقيم الخلقية والتشريعية – د/ علي علي صبح – الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث .

١٥- تهذيب اللغة – لمحمد بن أحمد بن الأزهري – المحقق: محمد عوض مرعب – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الأولى : ٢٠٠١م .

١٦- جامع البيان عن تأويل آي القرآن – لمحمد بن جرير الطبري – تحقيق : الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي – بالتعاون مع

مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر – الدكتور عبد السند حسن يمامة – الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – الطبعة الأولى : ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

١٧- الجدول في إعراب القرآن الكريم – المؤلف: محمود بن عبد الرحيم صافي – الناشر: دار الرشيد ، دمشق – مؤسسة الإيمان ، بيروت – الطبعة الرابعة : ١٤١٨ هـ .

١٨- حاشية السيد الشريف على الكشاف – ط – الدار العالمية .

١٩- حياة الحيوان الكبرى – لمحمد بن موسى بن عيسى الدميري – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية : ١٤٢٤ هـ .

٢٠- خصائص التراكيب للأستاذ الدكتور / محمد أبو موسى – الناشر: مكتبة وهبة – الطبعة السابعة .

٢١- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية – للأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعني – الناشر: مكتبة وهبة – الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م .

٢٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – للآلوسي – المحقق : علي عبد الباري عطية – الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ .

٢٣- سر الفصاحة – المؤلف : لابن سنان الخفاجي – الناشر: دار الكتب العلمية – الطبعة الطبعة الأولى : ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م .

٢٤- الصناعتين – لأبي هلال العسكري تحقيق : علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم – الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت – عام ١٤١٩ هـ .

٢٥- صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال – للقاضي : حسين بن محمد المهدي – راجعه : الأستاذ عبد الحميد محمد المهدي – مكتبة المحامي : أحمد بن محمد المهدي .
٢٦- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز – ليحيى بن حمزة العلوي ، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت – الطبعة الأولى : ١٤٢٣ هـ .
٢٧- العين – للخليل بن أحمد الفراهيدي البصري – المحقق : د / مهدي المخزومي د / إبراهيم السامرائي – الناشر: دار ومكتبة الهلال .
٢٨- غريب القرآن – لابن قتيبة الدينوري – تحقيق: أحمد صقر – الناشر: دار الكتب العلمية – ط : ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨م .
٢٩- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب – للسجستاني – تحقيق : محمد أديب جمران – الناشر: دار قتيبة – سوريا – الطبعة الأولى : ١٤١٦ هـ – ١٩٩٥ م .
٣٠- فتح القدير – لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني – الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت – الطبعة الأولى – ١٤١٤ هـ .
٣١- في ظلال القرآن – للشيخ سيد قطب – الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة الطبعة السابعة عشرة – ١٤١٢ هـ .
٣٢- الكامل في التاريخ – لابن الأثير – تحقيق : عمر عبد السلام تدمري – الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى : ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٣٣- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – للزمخشري جار الله – الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ .
٣٤- لسان العرب – لابن منظور الأنصاري – الناشر: دار صادر – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤١٤ .
٣٥- لطائف الإشارات للقشيري – تحقيق : إبراهيم البسيوني – الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر – الطبعة الثالثة .
٣٦- مباحث في إعجاز القرآن – د مصطفى مسلم – الناشر: دار القلم – دمشق – الطبعة الثالثة – ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م .
٣٧- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – لضياء الدين ابن الأثير – تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد – الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت – عام النشر: ١٤٢٠ هـ .
٣٨- مجاز القرآن – لأبي عبيدة معمر بن المثنى – تحقيق : محمد فواد سزگين – الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة – ط : ١٣٨١ هـ .
٣٩- معاني القرآن – لأبي جعفر النحاس أحمد بن محمد – المحقق: محمد علي الصابوني – الناشر: جامعة أم القرى – مكة المكرمة – الطبعة الأولى : ١٤٠٩ .
٤٠- معانى القرآن للأخفش – تحقيق : د/ هدى محمود قراعة – الناشر: مكتبة الخانجي – القاهرة – الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .
٤١- معاني القرآن للفراء – تحقيق : أحمد يوسف نجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح شلبي– الناشر: الدار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة الأولى .

٤٢- معاني القرآن وإعرابه – لأبي إسحاق الزجاج – الناشر: عالم الكتب – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
٤٣- معترك الأقران في إعجاز القرآن – لجلال الدين السيوطي – دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .
٤٤- المعجزة القرآنية حقائق علمية قاطعة – المؤلف : أحمد عمر أبو شوفة – الناشر: دار الكتب الوطنية – ليبيا – عام النشر: ٢٠٠٣.
٤٥- المعجزة الكبرى القرآن – محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة – الناشر: دار الفكر العربي .
٤٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي – الطبعة الأولى – ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ دار الحديث – القاهرة .
٤٧- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير – للفخر الرازي– الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثالثة – ١٤٢٠ هـ .
٤٨- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى– تحقيق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم – الدار الشامية – دمشق بيروت – الطبعة الأولى– ١٤١٢هـ .
٤٩- موسوعة الطير والحيوان في الحديث النبوي – عبد اللطيف عاشور – الناشر: القاهرة .
٥٠- نقد الشعر – لقدامة بن جعفر– الناشر: مطبعة الجوائب – قسطنطينية – الطبعة الأولى : ١٣٠٢ .
٥١- وظيفة الصورة الفنية فـــي القرآن – عبد السلام أحمد الراغب – الناشر: فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب – الطبعة الأولى : ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة :	٧٨
المبحث الأول : الدلالة على عظمة القدرة	٨٠
المبحث الثاني : الدلالة على بوار أعمال الكافرين	٨٩
المبحث الثالث : الدلالة على هول الموقف يوم القيامة	٩٩
المبحث الرابـــع : بيان أثر الكلمة نفعاً وضراً	١١١
المبحث الخـــامـــس : وصـــف مـــواقف الشـــدة	١٢٨
الخاتمة :	١٣٩
فهرس الآيات القرآنية :	١٤١
فهرس المصـــادر والمراجـــع :	١٤٦
فهرس الموضوعات :	١٥٢